



جامعة باتنة 1



كلية العلوم الإسلامية

بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لرحيل المجاهد
الحاج لخضر

نظمت الملتقى الوطني الرابع الموسوم بـ :
"الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية لطمس الهوية
الوطنية وآليات المقاومة"

يوم 14 أفريل 2026م

المستوى الحضاري للمجتمع الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي

الأستاذ الدكتور أحمد عيساوي

أستاذ الدعوة والإعلام والفكر الإسلامي المعاصر

كلية العلوم الإسلامية جامعة الحاج لخضر 1 – باتنة – الجزائر

d.aisawi.ahmed@gmail.com

ملخص الدراسة

تتمحور تفاصيل هذه الدراسة العلمية التاريخية البحثية حول جوهر وروح وحقيقة المستوى الحضاري للمجتمع الجزائري المتطور مدنيا وعمرانيا وثقافيا واجتماعيا قبيل موجة الاحتلال الاستعماري الفرنسي للجزائر. وتتضمن المحاور الرئيسة التالية:

- أولا – لمحة تمهيدية مختصرة عن مفهوم المجتمع.
 - ثانيا – لمحة عن واقع ومكونات المجتمع الجزائري.
 - ثالثا- أوضاع الجزائر الاجتماعية (1830 - 1954م)
 - رابعا- أوضاع الجزائر الاقتصادية: (1830 - 1954م)
 - خامسا- الأوضاع الثقافية والعلمية: (1830 - 1954م)
 - سادسا- سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر: (1830 - 1954م)
 - سابعا- سياسة فرنسا الثقافية في الجزائر: (1830 - 1954م)
 - ثامنا- وضع الإسلام والمؤسسات الدينية: (1830-1954م)
 - تاسعا- واقع التبشير المسيحي في الجزائر: (1830-1954م)
 - الخلاصة، والنتائج والتوصيات والاقتراحات.
- أولا – لمحة تمهيدية مختصرة عن مفهوم المجتمع:

يُعرف المجتمع المسلم من خلال الآي الحكيم والسنة النبوية المطهرة ((بأنه ذلك الكيان الاجتماعي البشري التلقائي، المكوّن من الشعور الجمعي للأفراد بالانتماء إلى هيئة وعقيدة وشريعة واحدة محترمة من الجميع، تحركهم وتسيرهم وتضبطهم، وتتضمن لهم ذاتية القرار وآليات الاستمرارية، وتربطهم مجموعة من الصلات المختلفة، التي يحددها العرف، وترسخها العادات والتقاليد والقوانين المرسومة فيما بينهم، وفق الأنظمة المتبعة التي تديرها سلطة منتقاة منهم))¹.

فالمجتمع في المفهوم الإسلامي، ومن المنظور القرآني هو وسط إنساني متشعب، وظاهرة معقدة ونامية، ذات مكونات أساسية، هي:

- 1 – جماعة أو مجموعة من أفراد الناس وجدوا تلقائيا نتيجة عوامل طبيعية متفاعلة في وسط اجتماعي، تميز بتداخل طواهره وتشابك مقوماته.
- 2 – صلات اجتماعية متنوعة، عرقية أو وطنية أو وجدانية أو فكرية أو ثقافية أو نفعية أو مصلحة، تكون منسجمة أحيانا ومتوترة أحيانا أخرى، وكلها انبثقت عن

¹ التومي، محمد (ت 2000م)، المجتمع الإنساني في القرآن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ودار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 1407هـ 1986م، ص 296.

وجود الأفراد الذين تألفت منهم الجماعة أو المجموعة، وتكوّن منهم المجتمع أو الجمهور أو الشعب أو الأمة.

3 - نظام معين ظهر في شكل قانون، تعاون على إبرازه دين أو عرف أو أخلاق وتاريخ وثقافة، وتطور وتغيّر مهمته الحفاظ على الصلات، وضبط الحقوق وتحديد الواجبات فردية كانت أم اجتماعية، حتى لا ينعطب التركيب ولا يختل توازن الهيكل العام.

4 - عقيدة مشتركة تغذي الروح الجماعية في المجتمع، وتقاوم الانفصالية المتمردة، هدفها تأمين حياة الأفراد، ومنح العلاقات المختلفة الاعتبار اللائق بها، وتمكين النظام العام من التقدير الذي يستحقه.

وبعد أن عرفنا أن المجتمع هو محصلة تفاعل الأفراد فيما بينهم وفق منظومة القيم الإسلامية والعرفية والواقعية المتعارف عليها فيما بينهم، وليس مجموع أفرادهم المنفصلين المتباعدين المنتفعين والمرتفقين فقط، نتساءل هنا عن مجتمع الدراسة المقصود ببحثنا ودراستنا، وهو المجتمع الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي.

1 - 1 - تساؤلات البحث:

كيف كانت صورته وحقيقته وواقعه؟

فقد بدت الجزائر من خلال وصف الرحالين والزائرين لها دولة قوية مرهوبة الجانب من قبل سائر القوى الصليبية المحيطة بها، ولاسيما في عهد حكم رياس البحر (2)، كما بدت من خلال وصفهم لها مدينة عامرة بالعلماء والفقهاء والخطباء والأدباء والشعراء.. كثيرة العمران والبنيان وافرة الخيرات عامرة الأسواق، تكثر فيها المساجد والجوامع والرباطات والأضرحة والزوايا ودور العلم المختلفة (3).

كما بدا فيها توقير أهل العلم على اختلاف درجاتهم العلمية من طلاب ومريدين، لأن مستوى علمائها كان لا يقل قدرا ومكانة ومستوى عما هو عليه في المشرق الإسلامي، ففيها من العلماء من تؤهله درجته العلمية لإجازة طلبته المتخرجين للتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد، وغيرها من العلوم (4).

وقد حصلت الجزائر على مستواها الحضاري العالي آنذاك من خلال تمكنها الدائم من كل أسباب التقدم من جهة، ومن تفاني أهلها ورجالها وحكامها في بذل المستحيل لتبقى (المحروسة) دار الجهاد، وذلك بما كانت تملكه من أسطول بحري عسكري ومدني قوي وفعال، اضطلع بدوره الجهادي المنوط به بإخلاص، كما اضطلع بدوره التجاري والاجتماعي والديني الحضاري (5).

(1) انظر: وليم شالر، مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816 - 1824م، تعريب: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1982م. وهانريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غرب أفريقيا، ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1980م.

(2) انظر: مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، 1981م.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 10 و32.. 35 و72 و160 و185 و186 و187 و188.

(4) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ج 3، ص 491.

ففي الجانب العسكري الجهادي نجده قد اضطلع بدوره للدفاع عن الوجود الحضاري الإسلامي المطارد والملاحق في حوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك برده لكل الهجمات الصليبية المعادية التي استهدفت أساسا الساحل الشمالي لأفريقيا المسلمة، وذلك بعد القضاء على آخر معقل للعرب والمسلمين في غرناطة⁽⁶⁾.

كما اضطلع بدوره الاقتصادي والتجاري، المتمثل في تنشيط حركية التجارة والنقل بين الشمال والجنوب، منافسا بذلك الأساطيل التجارية الصليبية المشهورة، بحيث قدرت عائداته المالية من القرصنة والتجارة، والنقل البحري بمئات الملايين من الفرنكات الذهبية القديمة، كما قدرت عدد سفنه الحربية العسكرية، والمدنية - المختلفة الأحجام - بحوالي ستمائة سفينة على وجه التقريب⁽⁷⁾.

ومع ذلك المستوى المتقدم من الهيمنة البحرية العسكرية والمدنية، إلا أن مذكرات أشرف مدينة الجزائر نعتت الوضع الأخلاقي والديني والاجتماعي المتردي لدى الكثير من طبقات المجتمع الجزائري، واصفة حالة الانهيار الأخلاقي والسلوكي والقيمي التي كان عليها العامة والخاصة من الجزائريين.

كما صورت لنا حالة الفتن والاضطرابات التي كانت تعج بها قصور الحكام، والنزاعات القائمة بين الطبقة الحاكمة في عاصمة الجزائر وفي أطرافها وأقاليمها النائية من جهة، وحالة الاضطراب التي كانت عليها القبائل الجزائرية بين بعضها من جهة ثانية، وصراع القبائل مع السلطة التركية المركزية في الجزائر من جهة أخرى⁽⁸⁾.

والمحلل لما ورد في أدب الرحلات وأدب مذكرات الأشراف والأعيان في الجزائر آنذاك العهد يصل إلى تشخيص وضع الجزائر والجزائريين كالتالي:

- 1 - المستوى العمراني والاجتماعي المتقدم والمترف الذي كانت عليه الجزائر.
- 2 - المستوى الاقتصادي المرفه والرغد الذي وصلته الجزائر آنذاك العهد.
- 3 - المستوى العسكري القوي - البحري خاصة - الذي كانت عليه الجزائر، إلى الحد الذي أوصلها إلى مستوى الغرور والاستهتار بالقوى الصليبية نتيجة الانتصارات البحرية والبرية المتوالية⁽⁹⁾.
- 4 - تردي المستوى الأخلاقي والديني والسلوكي لدى الكثير من أهلها.
- 5 - سوء الأوضاع السياسية واضطرابها ولاسيما بين الطبقة الحاكمة، والصراعات الشديدة التي كانت تعج بها قصور الحكام (دايات. بايات)⁽¹⁰⁾.
- 6 - اضطراب الأوضاع السياسية الأمنية بين القبائل الجزائرية وبعضها من جهة ومع السلطات التركية المركزية بالعاصمة والمحلية بالأقاليم من جهة ثانية⁽¹¹⁾.

(5) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 491 و492.

(6) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 492.

(7) انظر: أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1974م، ص 13..

(8) راجع محمد العربي الزبير، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1981م، ص 13.

(9) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 187.. ومابعدھا.

(10) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 40 و41.

7 - تردي الوضع السياسي والعسكري والأمني عامة، الذي بدا ذلك واضحا في حالة التفكك والانحلال أثناء مواجهة الحملة الفرنسية⁽¹²⁾.

8 - اشتداد حدة التكالب الصليبي على الجزائر وغفلة الطبقة الحاكمة الجزائرية في تقدير حجم ومستوى ذلك التكالب المغربي باحتلال الجزائر.

وعليه فإن الجزائر كانت مهياة - بشكل أو بآخر - للسقوط الحتمي الأجل أو العاجل في قبضة إحدى القوى الصليبية المتكالبة عليها.

وهكذا تنتقص من أرض الإسلام درتها في الغرب الإسلامي، التي كانت تتعت بالمحروسة أو دار الجهاد⁽¹³⁾ ويكتب على الجزائريين العيش في ظل الاستعمار والعبودية والاستذلال بعد أن كانوا أحرارا مستقلين.

ونتساءل الآن بعد هذه المقدمة عن مكونات المجتمع الجزائري المراد التعريف به؟

ثانيا-لمحة عن واقع ومكونات المجتمع الجزائري:

ولنحاول تتبع واقع ومكونات المجتمع الجزائري من خلال هذا التعريف العلمي للمجتمع الذي قدمناه آنفا، ومدى انطباقه على المجتمع الجزائري غداة غزو الفرنسيين لترابه ونهبهم لثرواته واستعبادهم له.

ولنحاول معرفة ما إذا كان الشعب الجزائري شعبا موحدا غداة الاحتلال الفرنسي، وهل كان مجتمعا متكاملا بما يتضمنه مصطلح مجتمع من دلالات اجتماعية وترايبية وثقافية وفكرية ودينية ولغوية..؟

وفي هذا الصدد تشير المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ الجزائر القديم والوسيط والحديث.. إلى أن الفرد الجزائري الذي عاش فوق هذه الرقعة الجغرافية المعروفة تاريخيا باسم الجزائر توفرت فيه مقومات المجتمع البشري⁽¹⁴⁾.

-
- (11) انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 53.
- (12) نص المعاهدة: وقع كل من الجنرال (دو بورمون - DE BOUREMONT) قائد العسكرفرنساوي، و(حسين باشا) داي الجزائر يوم 13/محرم/1245هـ. الموافق لـ 1830/07/05م. معاهدة هذا نصها:
- 1 - كافة القلاع المختصة بمدينة الجزائر وأبواب المدينة تسلم للعساكرفرنساوية في صباح 1830/07/06م على الساعة العاشرة.
 - 2 - يتعهد القائد العمومي الفرنسي أن يترك للباشا أمواله المختصة به.
 - 3 - أن يكون لحضرة الباشا الحرية بأن يتوجه مع عائلته وأمواله إلى المحل الذي يرغبه وفي مدة إقامته في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العمومي الفرنسي. وأن الباشا وعائلته يكونون تحت حرس مخصوص.
 - 4 - أن القائد العمومي يمنح هذه الحماية المعطاة لحضرة الباشا ولكافة قواد العساكر الجزائرية.
 - 5 - تعطى الحرية للديانة المحمدية، وللمكاتب الأهلية، ولديانتهم، ولأملأكهم، ولتجارهم، ولصنائعهم. وأن لا يعارضوا في ذلك، وأن نساءهم محفوظات معتبرات.
 - 6 - إن مبادلة هذه المعاهدة تكون غدا على الساعة العاشرة صباحا، وتدخل العساكر قلعة القصبة، ويقومون في قلاع المدينة والشطوط البحرية.
- (13) انظر: حمدان خوجة، المرأة، ص 203 و204. وزوزو، نصوص ووثائق، ص 69 و70.
- (14) انظر: شارل أندريه جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة البشير بن سلامة، ومحمد مزالي، الشركة التونسية للطباعة والنشر، تونس، الطبعة الثانية، 1983م.

ولنا أن نتساءل الآن عن الجزائر عندما غزتها فرنسا ماذا وجدت فيها سنة 1830م؟

هل وجدت الجزائر أرضا خالية كالجزر النائية الخالية من السكان التي اكتشفتها فرنسا في مجاهيل المحيط الهادي؟
وهل وجدت شعبا متخلفا على شاكلة شعوب أدغال أواسط أفريقيا وأمريكا والمحيط الهادي؟

أم أنها وجدت مجموعة قبائل متناثرة متناحرة لا رابط بينها تقوم على استغلال واستثمار أرض دعيت تاريخيا بالجزائر؟

1 - مقومات ومكونات المجتمع الجزائري:

في الحقيقة والواقع لقد وجدت فرنسا غداة دخولها أرض الجزائر مجتمعا جزائريا تنطبق عليه أركان التعريف السابق الذكر كما يعترف بذلك المنصفون منهم (15)، وهذه المقومات هي:

- 1 - الرقعة الجغرافية الترابية التي كانت تسمى الجزائر.
- 2 - الشعب الذي كان يعيش في هذه الرقعة الترابية منذ آلاف السنين (16).
- 3 - الصلات والعلاقات المختلفة القائمة بين أفراد هذا الشعب.
- 4 - النظام السياسي والقانوني والإداري والتشريعي الذي كان يحكمها ويضبطها.
- 5 - اللغة العربية التي كانت توحدهم في الفكر والتعامل.
- 6 - الدين والعقيدة الواحدة التي كانت تجمعهم على الكتاب والسنة.
- 7 - التاريخ المشترك الذي كون لديهم الحس الجمعي والشعور المشترك الذي حفظهم من التفكك.

ويوم أن دخلت فرنسا الجزائر كان المجتمع الجزائري متماسكا، وتمسكا بدينه لغته بالرغم من تنوع أجناسه وأعراقه (الأمازيغ: أمازيغ جرجرة. والأوراس. وميزاب. وتمنراست)، (العرب)، (اليهود) (المسيحيين)، (الأتراك)، (الأندلسيين)، (الزواج)، وقد قاوموا جميعا الاحتلال الفرنسي على قدم المساواة.

وقد وجدتهم فرنسا موحدين بفعل عوامل التوحيد التي انصهروا بها عبر تاريخهم الطويل والتي اضطلع الإسلام فيها بدوره الفعال في جعلهم أمة واحدة: لغة ودينا وترابا وروحا وحسا ونظاما (17).

ولكن الحقيقة التي يجب أن نجابه بها أنفسنا أنه عند دخول الفرنسيين لمدينة الجزائر كان المجتمع الجزائري (18) كغيره من المجتمعات العربية والإسلامية قد

(15) انظر: شارل روبيير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثانية، 1982م.

(16) امتزج سكان الجزائر ببعضهم عبر العصور بفعل عوامل متعددة أهمها: 1 - الجوار في السكنى. 2 - الزواج والمصاهرة. 3 - العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية. 4 - بواسطة الإسلام ولغته العربية لغة القرآن. 5 - بواسطة التاريخ المشترك الذي خلق فيهم الشعور الجمعي المشترك. 6 - بفعل اشتراكهم في المحن والألام والأحزان والانتفاضات والثورات، وعلى رأسها الثورة التحريرية المباركة.

(17) قدر عدد سكان الجزائر غداة الاحتلال حوالي عشرة ملايين نسمة، وعدد سكان الجزائر العاصمة حوالي 100 ألف.

تراجع عن الأخذ بأسباب التحضر والمدنية، بفعل حالة اللاوعي القائمة بينه وبين مرجعيته المقدسة، فدخل في حالة من التداعي القيمي، والانهياري الأخلاقي والفكري والديني، مما أدى إلى انهزامه الحضاري أمام المدنية الغربية الناهضة المتحفزة إلى الغزو، والمشبعة بروح الهيمنة والاستكبار.

ومع كل هذا التداعي الحضاري لم يجد الفرنسيون احتلال الجزائر مجرد رحلة سياحية عابرة - كما كانوا يتصورون - بل إنهم دفعوا الغالي والرخيص وارتكبوا أبشع الحروب والجرائم والمؤامرات والدسائس في سبيل استعمار الجزائر الذي دام قرنا كاملا.

ولذا سعوا بعد تثبيت دعائم حكمهم في الجزائر إلى تقسيم سكانها - لضرب وحدتهم الوطنية والدينية والثقافية - إلى قسمين رئيسيين هما:

1 - القسم الأول، الذي كان يضم عامة الشعب الجزائري المستضعف الملحق بفرنسا المسمى بالأهالي (الأنديجان).

2 - القسم الثاني، وهم الأوربيون الذين يحكمون البلاد ويتصرفون فيها، وقد انضم إليهم يهود الجزائر بعد قرار كريميو بمنحهم حق المواطنة الفرنسية عام 1871م، ومنهم كان الحكام والملوك والسادة.

ثالثا- أوضاع الجزائر الاجتماعية (1830 - 1954م)

بدأت مدينة الجزائر من خلال وصف الرحالة وقادة الحملة الفرنسية مدينة جليلة وكبيرة متوفرة على سائر مرافق الحياة العصرية في ذلك الوقت فقد قدرت عدد المنازل داخل سور العاصمة عام 1789م حوالي 5000 دار، كما قدرت عدد الدور داخل سور العاصمة عام 1829م بحوالي 8000 دار، وأما بقية الدور التي كانت خارج السور فقد قدرت عام 1578م بأكثر من 1500 دار إلى 2000 كانت تسكنها مختلف الأجناس المكونة للمجتمع الجزائري⁽¹⁹⁾.

كما بلغ عدد دور مدينة تلمسان حوالي 1043 منزلا، ودور مدينة معسكر 812 منزلا، ودور مدينة بجاية 265 منزلا، ودور مدينة وهران 532 منزلا، وأربعين محلا عموميا، ومثل ذلك عدد الحمامات، والفنادق والحوانيت، وكلها كانت مبنية بنظام فخم وطرارز بديع⁽²⁰⁾.

وإذا ضمنا إلى هذه الوثيقة التاريخية اعترافات الفرنسيين التي تصرح بحجم التخريب والتدمير الذي مارسوه في مدينة الجزائر وغيرها من المدن الجزائرية، وجدنا أن عدد الدور والمنازل والمساجد والزوايا والمدارس ورباطات الخير وأوقاف المدينة ومكة وطلاب العلم، التي كانت توقف لهم الأوقاف الخيرية المتعددة من:

(18) كان سكان العاصمة مقسومون إلى الطبقات الاجتماعية التالية: 1 - الأتراك وكان منهم الحكام. 2 - الكراغلة وهم الخليط من أب تركي وأم جزائرية. 3 - العرب وهم غالبية السكان. 4 - المتساكنون من اليهود وغيرهم من النازحين إلى الجزائر. انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 476 و477 و482، بتصرف.

(19) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 484.

(20) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 524.

مخابز وحمامات ودكاكين وأراض ومنازل وعقارات.. قد آل أمرها إلى الخراب على يد جنود الحملة الفرنسية الغازية.

وهذه فقرة من التقرير الذي أعدته اللجنة الإفريقية التي زارت الجزائر عام 1833م، وبداية عام 1834م، وقدمته لملك فرنسا، وفي هذا السياق يقول التقرير: ((.. لقد هتكنا شروط الاستسلام وكلمة الشرف واعتدينا على حقوق الأقوام والأكثر منها بساطة وبهذا أنكرنا جميع حقوق الأهالي وفوائدهم، وهتكنا أعراضهم، واعتدينا على كياناتهم، ثم بعد ذلك طلبنا الاستسلام الخالص من سكان لم يستسلموا قط لأحد. لقد ضمنا الأوقاف وأحقناها بالأملك العمومية. لقد انتهكنا حرمة الجوامع والمساجد والمقابر، واقتحمنا المساكن على سكانها، واعتدينا على شرفهم.. وحكمنا بالإعدام بمجرد تهمة وبلا محاكمة على أناس أبرياء دون أن نتحقق من جريمتهم، وسلبنا أموال ورتبتهم.. قتلنا أناسا حاملين أوراق الأمان وجواز المرور.. وذبنا لمجرد تهمة أقواما كاملة تبينت لنا بعد براءتهم..))⁽²¹⁾.

كما تشير مصادر قادة الحملة ومذكراتهم الشخصية إلى حجم التدمير الذي أحدثوه في الجزائر، مما يكشف ضمنا أن الشعب الجزائري كان في وضع اجتماعي راق: معيشيا وصحيا وتربويا وتعليميا وسلوكيا وثقافيا.. مجتمعا منسجما بالرغم من حالات الانفلات والتسيب التي شهدتها المجتمعات العربية والإسلامية آنذاك.

وقد شهدت الجزائر منذ بدء الاحتلال قدوم موجات من الهجرات الاستيطانية القادمة إليها بحثالات أوربا من المغامرين والمنحرفين والفاشلين، المتعطشين للنفوذ والثراء والسيطرة التي لم يجدوها في بلدانهم، وقد وصف المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان هجرة المعمرين الأوربيين إلى الجزائر مع مطلع الاحتلال فقال: ((.. بعد دخول الجيش الفرنسي أكبت السفن الآتية من مرسيليا وإسبانيا وإيطاليا جماهير غفيرة من الأوربيين، لا ذمة لهم ولا ضمير، مجبولين على الشجاعة وحب المغامرة، مولعين بجمع الدراهم والدنانير، فانتشروا كالبلاء المستطير، متكالبين على بيع العقارات وشرائها، وشاطرهم في تهاقتهم على الأرباح حتى بعض الأشخاص المحترمين متكالبين تكالب الجياح على القصاع يبيعون ويشترون، خطفا ونهبها وسرقا وسلبا، لا دين لهم إلا الأرباح الباهظة، لا يهمهم كيف أتت؟ ومن أين أتت؟..))⁽²²⁾.

1 - سياسة فرنسا الاستعمارية تجاه المجتمع الجزائري:

ولإفراغ الأراضي الخصبة والمناطق الغنية بالثروات من الجزائريين عمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى اتباع سياسة استعمارية قاسية، تمثلت في الإجراءات القمعية التالية الذكر:

1 - تضيق الخناق على المجتمع الجزائري بأساليب القمع والإرهاب والمصادرة والاستيلاء والاستيطان وغيرها، ولقد شهدت الجزائر بين عامي 1830 - 1840م

(21) أندريه برينان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ص 239 منقولاً عن تقرير اللجنة الإفريقية المعنية من طرف الملك يوم 1833/07/07م تقارير محضر باريس 1834م، ص 333. والخطيب، حزب الشعب الجزائري، ص 21.

(22) فرحات عباس، ليل الاستعمار، ص 95.

تطبيق سياسة الاستيطان الحر للمهاجرين الأوروبيين إليها، وفي هذا الصدد يصرح الأستاذ (شارل روبير أجيرون) قائلاً: ((.. لقد طبق من عام 1830 إلى 1840 استيطان حر والأفضل أن نقول فوضوي، فحالما احتلت مدينة الجزائر انقض على البلاد آلاف من البشر المتوحش تكتسب بالمتاجرة بأبنية المدن حاولوا احتكار الأراضي الخصبة وقطع الغابات، حتى أصبح ساحل الجزائر الغني بالممتلكات والبيوت الريفية التي هجرها أصحابها ميدانا خاليا، استقر فيه مشترون أوروبيون جشعون مشكوك في حسن نيتهم وأخلاقهم، وأرستقراطيون رومانتكيون.. وكان الماريشال <كلوزيل> وهو الاستيطاني العنيف، هو القدوة في ذلك، فحصل بسعر رخيص على أملاك واسعة وحاول أن يجعل من سهل متيجة مستقرا للمتسولين الأوروبيين فامتأ السهل بالصعاليك والفقراء الأوروبيين الذين بلغ عددهم 250 ألفا، 11 ألفا من الفرنسيين)) (23).

2 - وضع سياسية تمييزية في التعامل مع السكان الجزائريين، تمثلت في وضع سياسة خاصة يتعامل بها مع سكان القبائل، الذين يجب التركيز عليهم لمسخهم وتمسيحهم تمهيدا لفرنستهم. وسياسة ثانية مع السكان الشاوية، الذين هم مزيج من الأجناس المختلفة، تمهيدا لمسخهم، وضمهم إلى إخوانهم القبائل. وسياسة ثالثة قوية وشديدة وقاسية يتعامل بها من السكان العرب (24).

3 - إغراق البلاد الجزائرية بالقوانين والقرارات الجائرة، وعلى رأسها قوانين الموت والإبادة المتمثلة في قوانين (الردع الزجري)، التي ساد الرأي حيالها في الأوساط الاستعمارية في القرن الأول من الاحتلال إلى لزوم اعتبار الجزائريين درجة ثانية، وإلى ضرورة تمييز الفرنسيين عنهم، وبالتالي فهم بحاجة لضبطهم وتسييرهم بقوانين ردية زجرية استثنائية لاصلة لها بحقوق الإنسان (25).

4 - تشجيع هجرة الجزائريين إلى خارج الجزائر، فقد هاجر آلاف الجزائريين لأسباب سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية نحو المغرب الأقصى وتونس والشرق الأدنى، لأنهم كانوا ينشدون الحرية من البقاء في ظل الهيمنة الاستكبارية الفرنسية، بحيث قدر عدد المهاجرين الجزائريين باتجاه كل من مصر حوالي 30 ألفا وإلى شبه الجزيرة العربية حوالي 15 ألفا وإلى فلسطين حوالي 6000 ألفا ونفس العدد إلى فرنسا، وحوالي الألفين إلى بلاد الأناضول (26).

وبمقابل هذه الهجرة كان قادة الاحتلال يسعون إلى ملء الجزائر بالمهاجرين الأوروبيين فقد أعلن الجنرال بيجو بنفسه أمام مجلس النواب الفرنسي يوم 1840/05/14م عن رغبته في تهجير الأوروبيين إلى الجزائر، وملء أماكن الجزائريين المغادرين بالأوروبيين فقال: ((.. يجب أن يهجم أكبر عدد ممكن من الفرنسيين والأوروبيين على الجزائر، ويجب أن تبعثوا بمعمرين تمكونهم من أحسن الوضعيات لكي تكسبهم وهؤلاء المعمرون يجب أن تعطى لهم الأراضي الخصبة

(23) شارل روبير أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ص 53، بتصرف.

(24) انظر: العربي الزبيري، المثقفون الجزائريون والثورة، ص 75، بتصرف.

(25) انظر: أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، ص 31 و32، بتصرف.

(26) انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 129 و130 و135، بتصرف.

والواقعة على مجاري المياه من غير بحث عن يملك هذه الأراضي قبلا، لأنه يجب أن تقسم عليهم قبل أي أحد..))⁽²⁷⁾، وما كاد القرن التاسع عشر ينتهي حتى كان عدد المستوطنين الأوروبيين في الجزائر حوالي المليون⁽²⁸⁾.

5 - الحط من مستوى المجتمع الجزائري المالي والصحي والاجتماعي فقد صرح بذلك (جول فيري - JULES FERRY) رجل الاستيطان الفرنسي وأحد قادة الاستعمار في شمال أفريقيا قائلا: ((.. تأملناه عن قرب - الجزائري - وفحصناه من خلال مظاهره الخاصة والعامة فوجدناه ضيق الأفق.. فالمعمرون يعلنون أن هذا الجنس غير قابل لإصلاح أمره ولا للتربية، ألم يؤكد مجلس الجزائر الأعلى سنة 1898م أن العربي من جنس منحط لا سبيل إلى تأديبه..))⁽²⁹⁾.

6 - حرمان الجزائريين من كل عوامل البقاء والصدود وذلك بنزع ممتلكاتهم ومنحها بسهولة للأوروبيين ثم اخضاعهم لقوانين عنصرية تجعلهم أقل مكانة من المعمرين وقد صرح بهذه النزعة الاستتصالية الباحث الفرنسي الدكتور (بوديشون - BAUDICHON) قائلا: ((.. لا يهم فرنسا أن تخرق في سياستها الاستعمارية المقاييس الأخلاقية وقيمها ولكن الذي يهمنا قبل كل شيء هو تأسيس مستعمرة نملكها بصفة نهائية وننشر على الشواطئ البربرية المدنية الأوربية ومن البديهي أن أقصر الطرق لبلوغ غايتنا هو نشر الرعب ففي استطاعتنا أن نحارب أعداءنا الإفريقيين بالحديد والنار، وأن نضرم نار الفتنة بين قبائل التل والصحراء، وأن نبلوا السكان باستهلاك الكحول، ونشر الفساد، وبث عقارب النزاع والفوضى بينهم..))⁽³⁰⁾.

وحسب (جول فافر - GULES FAVERE) فإن عدد السكان الجزائريين قد نقص بمقدار الربع خلال عشر سنوات وذلك من جراء البطء الشديد في عدد المواليد منذ الاحتلال بسبب سوء الأوضاع الاجتماعية والأمنية التي سببتها فظائع الاستعمار وبسبب سنين الجفاف والقحط والمجاعات الكبرى.. التي اجتاحت الجزائر سنوات 1868 - 1871م، فقد قدر نقص عدد الجزائريين سنة 1871م بـ 400 ألف شخص تقريبا، بعدما كان يعد تقريبا ثمانية ملايين نسمة⁽³¹⁾.

7 - حرمان الجزائريين من الارتقاء إلى الوظائف المؤثرة والحساسة والعادية أيضا رغم صورية قانون نابليون الثالث الذي أصدره يوم 1865/07/14 الذي يبيح فيه للجزائريين نظريا تولي بعض الوظائف الإدارية في جهاز الدولة، إلا أن قرارات أخرى صدرت وعلى رأسها قرار 1919/03/26م، وقرار 1922/12/24م قد

(27) مجلة المجاهد الجزائرية، وزارة الأخبار الجزائرية، عدد خاص، 1959م، ص 2.

(28) انظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 146، بتصرف.

(29) شارل أندريه جوليان، أفريقيا الشمالية تسير، ترجمة: المنجي سليم، الطيب المهيري، الصادق المقدم، فتحي زهير..، مراجعة: فريد السوداني، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة 3، 1396هـ، 1976م، ص 43 و44، ت.

(30) دكتور بوديشون، خواطر عن الجزائر، باريس 1945، ص 150، نقلا عن تركي رابح، ابن باديس، ص 26، ت.

(31) انظر: رابح بوعزيز، المجاعة بالجزائر في أواخر عقد الستينات من القرن التاسع عشر، مجلة الأصالة، السنة الخامسة، عدد 33، جمادى الأولى 1396هـ ماي 1976م، ص 12.

خصوصا عددا من الوظائف الإدارية أطلق عليها اسم (وظائف سلطة) لا يمكن للجزائريين أن يتولوها بأية حال من الأحوال حتى لو منحوا حق التجنس⁽³²⁾. وقد أشار الدكتور (فيتال - VITAL) في العديد من رسائله إلى ما كان يعانيه الجزائريون من سوء وفضاعة الأوضاع الاجتماعية والصحية والمعيشية.. وبخاصة رسالته المؤرخة يوم 1867/07/09م التي وصف فيها مظاهر البؤس والجوع والفقر التي كان عليها الجزائريون فقال: ((.. إنه لم تبق إلا الأشياء المحزنة ماثلة أمام الأعين كالعطش والجوع والتعاسة والأمراض... والأهالي يموتون بالجملة في عدة جهات من الوطن من جراء مرض الكوليرا والتيفوس المتفشين بسبب المجاعة..))⁽³³⁾.

ومن أين للجزائريين تحسين مستواهم الاجتماعي في ظل سياسة الاستعمار الفرنسي التقديرية؟! فرغم الأعمال الشاقة التي يضطعون بها في المؤسسات الاقتصادية الاستعمارية إلا أن متوسط أجورهم كان في مطلع القرن العشرين للعامل الواحد حوالي أربع فرنكات⁽³⁴⁾.

ومن أين للجزائريين تحسين مستواهم الاجتماعي والصحي وعدد الأطباء منهم سنة 1949م قد بلغ 82 طبيبا جزائريا مقابل 1559 طبيبا فرنسيا، وعدد أطباء الأسنان الجزائريين عشرة أطباء يقابلهم من الأوربيين 317 طبيبا، وعدد الصيادلة الجزائريين يقارب 35 صيدليا يقابلهم 605 من الأوربيين، وعدد المعلمين - عدا معلمي المدارس الحرة والزوايا - 509 معلما يقابلهم من الأوربيين 6227 معلما، وعدد القابلات الجزائريات 11 قابلة، تقابلهن من الفرنسيات 427 قابلة أوروبية⁽³⁵⁾.

2 - وضع اجتماعي مزر:

ونحب أن نختم هذا المحور بتصريح الدكتور (ج. توماس) الذي عمل طويلا في مستشفى مدينة الجزائر سنوات 1935 - 1945م، لأن في تقريره وصف حقيقي للمستوى الاجتماعي والصحي والمعيشي الذي آل إليه الجزائريون بعد قرن وربع القرن من الاستعمار القاسي، حيث يقول: ((.. لقد عشت في مدينة الجزائر فترة

(32) انظر: ركي رابح، المرجع السابق نفسه، ص 41 و42، بتصرف. وظائف السلطة: هذه الوظائف التي كان يمنع على الجزائريين توليها هي: 1 - كاتب عام بإدارة الحاكم العام. 2 - مستشار حكومة. 3 - نائب مستشار حكومة. 4 - مدير الولاية العامة. 5 - عامل عمالة (محافظ). 6 - كاتب عام بإدارة العمالة. 7 - نائب عامل عمالة. 8 - مستشار بالعمالة. 9 - مراقب. 10 - مدير بلدية. 11 - مدير ثان بلدية مختلطة. 12 - رئيس أول بدائرة الاستئناف. 13 - رئيس غرفة عالية. 14 - مستشار بالدائرة العدلية. 15 - مدعي عمومي. 16 - نائب حق عام. 17 - نائب مدعي أونائب حق عام. 18 - رئيس محكمة ابتدائية. 19 - نائب رئيس محكمة ابتدائية. 20 - قاضي بحث. 21 - نائب حاكم. 22 - قاضي صلح. 23 - نائب قاضي صلح. 24 - مدير جامعة علمية. 25 - مراقب علمي. 26 - محافظ ومراقب مياه وغابات. 27 - قابض ضرائب عام. 28 - قابض خاص بالخرانة الجزائرية. 29 - مدير أو مراقب للجمارك. 30 - مدير أو مراقب للتسجيل ولأملاك الدولة. 31 - مدير أو مراقب بإدارة الضرائب. 32 - مراقب إدارة العمال. 33 - مدير أو مراقب بإدارة البريد. 34 - رئيس قسم شرطة. 35 - مراقب شرطة السكك الحديدية والموانئ.

(33) يحي بوعزيز، المجاعة بالجزائر، ص 9 و10، بتصرف.

(34) انظر: فرحات عباس، ليل الاستعمار، ص 115.

(35) انظر: تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص 165، بتصرف.

طويلة، ولقد رأيت فرقا من الأطفال في أسمال بالية، يجنون قوت يومهم ابتداء من سن الخامسة ببيع الجرائد ومسح الأحذية، ورأيت أعشاش القصدير في الأحياء العربية وهي أماكن تعتبر عارا على الحضارة الغربية، وأثناء جني الكروم التقيت بعمال المزارع يمشون مسافة مئات الأميال بحثا عن العمل ينامون في الليل في الحفر ويتغذون ببعض حبات من التمر أو من العنب.. لقد كنت خجلا من كوني فرنسيا. إنني كنت في الجزائر سنة 1945م في وقت المجاعة عندما كان آلاف الناس يموتون جوعا خلال سنة من الجفاف. وقد شاهدت القمع المروع الذي نتج عنه موت ستين ألف شخص، وشاهدت أطفالا عمرهم سنة واحدة يأكلون التراب كما شاهدت مائتي شخص يموتون من الملاريا في بضعة أيام بغرداية. فكيف لا نحصد الثورة؟ عندما نكون قد زرنا خلال هذه المدة الطويلة الحقد، والإهانات، والبؤس..))⁽³⁶⁾.

هذا المشهد الاجتماعي الحزين الذي دشنه الغزاة الأوائل، الذين يفتخرون على ألسنة قادتهم، ومنهم الجنرال (بروسار - BRAUSSARD) الذي قال مفتخرا: ((.. لقد حططنا قرابة تسعة آلاف منزل، كانت من أبهى وأبدع المنازل بضواحي العاصمة..))⁽³⁷⁾.

ومنهم أيضا نوابهم (دو ساد - DE SADAIT) الذي خطب في مجلس الأمة الفرنسي مفتخرا يوم 1834/04/28م، فقال: ((.. حططنا في مدينة الجزائر 900 منزلا، دون سابق انذار، واستولينا على 60 مسجدا، فاستعملناها للمصالح العسكرية وهدمنا عشرة منها، وكنا حينما قمنا بأعمال البناء ننبش القبور ونبعثر العظام دون أدنى احترام..))⁽³⁸⁾.

والمحلل لهذه الشهادة الصادرة عن أحد الأطباء المثقفين الفرنسيين التي وصف فيها حالة بؤس المجتمع الجزائري الصحية والاجتماعية والمعيشية والأمنية.. بعد قرن وربع من الاستدلال والاستعمار - وبعدها كان المجتمع الجزائري يعيش أمنا في رغد من العيش - يتبين ما يلي:

- 1 - وضع الجزائريين المهني والمعيشي والصحي قبل الاحتلال وبعده.
- 2 - وضع الجزائريين التربوي والتعليمي والتكويني قبل الاحتلال وبعده.
- 3 - وضع الجزائريين المزري في ظل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية الاستدلالية.
- 4 - حالة البؤس والشقاء التي تحول إليها الجزائريون بعد حياة حافلة بالرفاه والعز.
- 5 - وضعية الطفولة والأمومة وحقوق الإنسان العادية في ظل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية، وفي ظل ثورة المبادئ والقيم. ثورة: (الحرية. العدالة. المساواة).
- 6 - كذب الطروحات الغربية القائلة بتمدين الشعب الجزائري الهمجى المتوحش.
- 7 - وضوح الروح الاستكبارية الاستعلائية الكامنة في الفرد الأوربي عموما، والفرنسي خصوصا.
- 8 - الكشف عن خبايا وحقيقة النفسية الأوربية المريضة المشبعة بروح الحقد والانتقام والسادية المتلذذة بعذابات الجزائريين.

(36) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930 - 1945م، ص 158.

(37) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 446.

(38) المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 445.

9 - تهيئة المناخ المناسب لاندلاع الثورة الجزائرية المسلحة، التي استثمرت وضعية الشعب البائس في الثورة والتحرر والانعتاق من نير العبودية الفرنسي.

رابعاً- أوضاع الجزائر الاقتصادية: (1830 - 1954م)

ما كادت تصل الساعة العاشرة صباحاً من يوم 1830/07/06م لاستسلام الجزائر الرسمي بيد القائد < دو برمون >، وخروج الداى حسين ورجال دولته من قصر الجينية بالقصبة حتى سارع قادة وجنود الحملة الفرنسية إلى مكان الخزينة الجزائرية التي طالما حلموا بذهبها طويلاً، لينتهبوا منها ما مجموعه ستين مليوناً من الفرنكات الذهبية والفضية، ولينتهبوا أموال الناس الخاصة التي قدرت بأربعمائة مليون فرنك ذهبي وفضي⁽³⁹⁾، عدا التحف والأثاث والهدايا والأفرشة والصوف والسجاجيد والحيوانات... التي كانت في قصر الداى وفي قصور أغوات الجزائر وفي دور الجزائريين الأعيان والمواطنين الذين فروا من هول المعارك.

1 - وضع الجزائر الاقتصادي والتجاري والمالي قبيل الاحتلال:

وبنظرة مقارنة بين وضع الجزائر والجزائريين الاقتصادي والمالي قبيل الاحتلال وبعده نتبين حقيقة المستوى الاقتصادي الكارثي الذي آل إليه أمر الجزائر والجزائريين بعد الاحتلال.

فقد عرفت الجزائر نشاطاً اقتصادياً كبيراً باتجاه العالم آنذاك وكان التجار الجزائريون يصدرون نحو أوروبا القمح والشعير والتين والزيتون والزيت والزيبب والتمر والتبغ وريش النعام والجلود والصوف الخام ونسيجه والأرز والكتان والملح وخرز المرجان.. وغيرها مما تشتهر به الجزائر، عبر موانئ عنابة والقالة وبجاية والجزائر ووهران وكذلك باتجاه الشرق الإسلامي وأمريكا⁽⁴⁰⁾.

كما كانت تجوب مناطقها الداخلية قوافل تجارية هامة تربط بين مدينتي قسنطينة وتونس، ومن أهمها القافلة الشهيرة التي كانت تنطلق من مدينة قسنطينة متكونة من حمولة 200 إلى 300 بغل محملة ببضائع تبلغ قيمتها مليون فرنك لتباع بمدينة تونس بمليون ونصف مليون فرنك⁽⁴¹⁾.

كما كانت تستورد الرخام من إيطاليا وآلات الحديد والأدوات الفولاذية كالسلاسل ومراسي السفن وغيرها من فرنسا، وتستورد نسيج القطن والقطيفة والحريز وأنواع الأقمشة من مدينة ليون وجنوة، وزجاج البلور من بوهيميا ومن البندقية التي يؤتى منها بأنواع المرايا والخزف المطلي والزليج والسلاح والساعات وملح البارود، ومن بريطانيا جميع أجهزة الحرب وشرائع السفن والقلاع والحبال والأخشاب الغليظة لإنشاء السفن، ومن الشرق التوابل والعطور والعقاقير والتحف والسجاد والخزف⁽⁴²⁾.

(39) انظر: برينان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ص 236. وسعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، قسم 1، ص 22. والجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 498.

(40) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 495 و496، بتصرف.

(41) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 497، بتصرف.

(42) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 497، بتصرف.

وقد عرفت الجزائر أيضا مع حركتي الاستيراد والتصدير حركة مهنية وصناعية أخرى متقدمة، وكانت تمارس أعمالها التجارية الداخلية عبر نظام الأسواق إذ عرفت الحواضر الجزائرية انتشار نظام الأسواق المتنوعة في بضائعها ومصنوعاتها، واختلاف المهن والحرف اليدوية بها، فنجد سوقا خاصا بالحدادين، وسوقا خاصا بالريصايفية، وسوقا خاصا بالمقاييسية وصانعي الأساور والخواتم من عظم الجاموس، وسوق الذكير - الفولاذ - وسوق الصغارين لصنع مختلف أواني النحاس وتمويهها بالقصدير، وسوق الصاغة، وسوق الدباغين، وسوق الخراطين، والفرايغية لإذابة المعادن وسائر القطع المعدنية وسكبها، ودار لصناعة المدافع والقنابل والسفن والرصاص والبارود..⁽⁴³⁾

وقد كان جل الجزائريين من ملاك الأراضي ففي التقرير الذي قدمته لجنة إحصاء الأملاك لملاك الأراضي التي رافقت الحملة الفرنسية المقدم إلى المجلس الوطني الفرنسي سنة 1837 جاء فيه أن ملاك الأراضي من الجزائريين بلغ مجموعهم حوالي ثلاثة ملايين ونصف⁽⁴⁴⁾، وكانوا يتمتعون بنظام ملكية متعارف عليه في الجزائر قبل دخول الاحتلال، وهو موزع على أنظمة الملكية وأعرافها التالية:

- 1 - أراضي الأوقاف الإسلامية والخيرية.
- 2 - أراضي الحكومة (البايك).
- 3 - أراضي القبائل (أرض العرش والسبقة).
- 4 - الأملاك الفردية⁽⁴⁵⁾.

والمتمتع في وضع الجزائر الاقتصادي قبل الاحتلال يتبين أن الجزائر والشعب الجزائري كان في وضع اقتصادي جيد إذا ما قورن بالأوضاع الاقتصادية العالمية آنذاك، وأن مستوى الدخل والانتاج المالي والمعيشي الذي كان عليه يشير إلى حالة الرخاء التي كان يعيشها الفرد والأسرة والمجتمع في: السكن والملكية والمهنة والانتاج والتصدير..

2- وضع الجزائر الاقتصادي والتجاري والمالي بعيد الاحتلال:

ولذا فقد اندفع الغزاة باتجاه ثروات هذا الشعب المقهور نهبا وسرقة ومصادرة وإفناء حتى قدرت عدد الخسائر في المواشي بين عامي 1830 - 1845 بـ 18 مليون رأس من الغنم وحوالي 4 مليون رأس من البقر والإبل، بالإضافة إلى غيرها من الخسائر⁽⁴⁶⁾.

ولم يجد قادة الحملة الفرنسية حرجا بالافتخار بذلك التدمير والتخريب كما رأينا ذلك، كما أنهم تسابقوا لإفقار الجزائريين ومطاردتهم في قوت يومهم مقابل منحه للغزاة، فهذا (فارانت - VARNT) وهو من أساطين ودعاة الجزائر الفرنسية في كتابه العنصري يقول: ((.. يجب علينا أن نستولي شيئا فشيئا وبدون هوادة ولا شفقة

(43) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 501، بتصرف.

(44) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 484، بتصرف.

(45) انظر: تركي رابح، ابن باديس رائد الإصلاح، ص 87.

(46) انظر: أندريه برينان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ص 296.

على جميع مراتعهم ومراعيهم، ونثقل كواهلهم بضرائب مرهقة حتى تتعذر عليهم الحياة، فلا يجدون ما يسدون به رمقهم، فيصبحون حينذاك بين أمرين لا ثالث لهما إما أن يثوروا وإما أن ينخرطوا في جيش فرنسا للدفاع عنها))⁽⁴⁷⁾.

وتقع الموارد الاقتصادية الجزائرية بيد غلاة المعمرين الأوروبيين وتبتدىء عملية استنزاف موارد الجزائر، وذلك بطرد الجزائريين من أراضيهم وأملاكهم، وتشجيع المستوطنين الأوروبيين على الهجرة والاستيطان في الجزائر مكان الجزائريين المهجرين المشردين والمقتولين..

فقد ورد في تقرير صادر عن وزارة الشؤون الحربية الفرنسية قسم شؤون الجزائر مذكرة حول القطع الزراعية الممنوحة مجاناً للمعمرين وللتسهيلات المجانية الأخرى المساعدة على الاستيطان مايلي: ((.. على الأشخاص الراغبين في الإقامة بالجزائر بصفتهم معمرين مستفيدين ضمن المراكز السكنية والقرى الفلاحية التي تشيدها الحكومة توجيه طلباتهم مباشرة أو عن طريق الولاية - وهذا أفضل - إلى وزارة الحربية، وقد رصد للعائلة الكبيرة مبلغ يتراوح بين 1200 و1500 فرنك تستلمه العائلة قبل الإبحار من ميناء طولون ومرسيلية وعند الوصول يحصل المستفيد في الحين وبغناية من مدير الداخلية على قطعة أرض للبناء في القرية التي ستحدد له، وقطعة أخرى للحرث، والقطعة الأولى تكون واسعة بحيث تكفي لبناء دار وإقامة اصطبلات وساحة، والثانية للحرث ومساحتها بين 4 و21 هكتاراً، وسيجد المستفيد ملجأ مؤقتاً تحت أبنية خشبية جاهزة تقيمها الإدارة ريثما يتم بناء مسكنه الخاص الذي ستساعده الدولة بمبلغ قيمته من 300 إلى 600 فرنك، وسيعطى أدوات الزراعة والحرث والبذور وكل ماله علاقة بها مجاناً من الحكومة..))⁽⁴⁸⁾.

وبمقابل هذه التسهيلات التي كان يعلن عنها لتمنح إلى المعمرين الأوروبيين كان الجزائري يخنق بالقوانين الجزيرية منها قرار 1864/12/04م الذي يخول للفلاح والخماس⁽⁴⁹⁾ والأجير عند ملاك الأراضي الجزائريين مغادرة الأرض وفك عقد العمل متى أراد هو ذلك كما يعفى الفلاح الجزائري المهاجر للعمل عند الأوروبيين الفلاحين المعمرين من ضريبة العشر⁽⁵⁰⁾.⁽⁵¹⁾

3 - الاحتلال والسيطرة القانونية في المجال الاقتصادي:

ومن أشد هذه القوانين على الفلاح الجزائري قانون الزجر الجماعي المؤرخ يوم 1874/07/17م، المتضمن ما يجب اتخاذه للاحتراس من توسع الحرائق في الغابات الجزائرية والزجر المترتب عليها في حين وقوعها، وهو قسم من أقسام

(47) فرحات عباس، ليل الاستعمار، ص 74.

(48) عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 141 و142، بتصرف.

(49) الخماس: هو الأجير الذي يعمل عند الفلاح المالك مقابل الحصول على خمس خراف من المائة.

(50) ضريبة العشر: هي زكاة العشر التي تؤخذ من كل مائة كيس من الحبوب عشرة أكياس كانت تأخذها السلطة.

(51) انظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 104.

قانون الانديجيناالرهيب (52)، بالإضافة إلى قانون الزجر الجماعي القاضي بالوقاية من حريق الغابات المؤرخ يوم 14/07/1870م. (53)

وباستعراض بعض القضايا والتهم الموجهة لبعض الفلاحين الجزائريين نكتشف بشاعة الظلم التفتير والتجهيل والاستغلال الذي عاناه الإنسان الجزائري من غطرسة المعمر الأوروبي الجشع، ولعلنا نسوق هذه الجرح التالية لتكشف لنا مستوى الغطرسة والظلم الذي وقع بالفرد الجزائري.

3 - 1 - نماذج من السيطرة القانونية:

بيروي المتقف الفرنسي السيد (لوموان - LE MOIN) معاملة الكولون الفرنسي للفلاح الجزائري: ((.. إنني عثرت على عدد هائل من الملفات التي تشتمل على قضايا سميت جناح وماهي بذلك أذكر منها على سبيل المثال:

أ - الجنحة رقم 523 التي يؤخذ على صاحبها أنه حرث قطعة أرض مكونة من أربعة هكتارات بعد أن كان حولها إلى مرعى، وقد سلط حارس الغابات على الفلاح المسكين غرامة قدرها ألفي فرنك ولما لم يتمكن المسكين من الدفع أرغم على تعويض ذلك بالشغل الشاق لمدة (113) يوما لفائدة الدومين.

ب - الجنحة رقم 524 التي اتهم صاحبها بأنه حرث ثلاث هكتارات وحكم عليه حارس الغابات الفرنسي بأن يشتغل لفائدة الدومين مدة ستة وثمانين يوما.

ج - الجنحة رقم 525 التي اتهم صاحبها بأنه حرث خمسة هكتارات وحكم عليه حارس الغابات الفرنسي بأن يشتغل لفائدة الدومين (54) مائة وثلاث عشرة يوما..)) (55).

وقد صاحب عملية الإجهاض والتعويق الاستعمارية عمليات استنزاف أخرى للموارد الطبيعية، والزراعية والمنجمية والطاقوية.. التي أصبحت تشمل كافة الثروات والمنقولة والمصدرة باتجاه فرنسا والعالم الغربي، والمقدرة بمئات الآلاف من الأطنان (56).

وتعدى الاستنزاف الثرواتي الطبيعي إلى استنزاف الموارد البشرية الجزائرية وتسخيرها لخدمة المعمرين وفرنسا، وجند الجزائريون في الجيش الفرنسي إجباريا للدفاع عن فرنسا وأوروبا ومات مئات الآلاف منهم في الحربين العالميتين ومن رجع حيا عاد يحمل معه جروحه وإعاقاته، كما سخر الآلاف من العمال للعمل في المصانع الفرنسية بأجور زهيدة وفي ظل ظروف عمل قاسية جدا (57).

(52) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 193.

(53) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 200.

(54) الدومين - DOMAINE: هي أملاك الدولة الفرنسية التي سيطرت عليها بالقوة بعد أن كانت ملكا شخصيا أو وقفا.

(55) العربي الزبيري، المتقفون الجزائريون والثورة، ص 76.

(56) انظر: الحيلالي صاري ومحفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900 - 1954م، ترجمة: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، 1987م، ص 179.

(57) انظر: عبد الحميد زوزو، الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919 - 1939م، ص 15، ت.

ولقد تضافرت العوامل المختلفة على الجزائريين من جفاف ونكبات وكوارث وأمراض إلى ظهور المجاعات الكبرى التي عززها انتشار وباء الكوليرا والتيفوئيد، حتى امتلأت الأرض بالجوع والمرضى والمنكوبين حتى ليتعذر على المراقبين إحصاء عدد الضحايا في المجاعات التي ضربت الجزائر سنوات 1868م، و1914م، و1940م⁽⁵⁸⁾.

وقد لخص الأستاذ سعد الله أوضاع الجزائر الاقتصادية مبينا أن الجزائر قد عانت كثيرا من سوء الأوضاع الاقتصادية، حتى أن شبح المجاعة أصبح يهدد السكان، فقد انخفضت أسعار المواد الفلاحية وانهارت أسواق الحبوب، وسقطت قيمة الأجور، وتعطلت جميع المشاريع العامة التي ابتدء فيها سنة 1921م، بالإضافة إلى الزيادة الكبيرة في نسبة البطالة وفي عدد السكان، الذين كان معظمهم يعيش على الفلاحة، سواء أكانوا ملاكا صغارا، أو عمالا فلاحين لدى غلاة المعمرين، ولم تكن مساحة الأرض وقحطها ولا بدائية الوسائل الفلاحية تسمح للفلاح الجزائري بالقيام بشؤون أسرته، بالإضافة إلى حرمانه من حريته التصرف في منتوجاته، لأن الشركات الاحتكارية كانت تشتري منه بئس بئس وتبيع نفس الإنتاج بأرباح طائلة، وفي مناطق تربية المواشي عانى الفلاحون من نقص المياه مع زيادة رهيبية في الضرائب مما اضطر الفلاحين للهجرة من الريف إلى المدن أو فرنسا أو لجهات أخرى من العالم⁽⁵⁹⁾.

وهكذا ينحط مستوى الفرد الجزائري الاقتصادي بفعل عمليات التدمير والتضييق التي سلطها عليه المستعمر الفرنسي، وعليه يمكن تلخيص وضعية الفرد الجزائري الاقتصادية المزرية كالتالي:

- 1 - تدهور مستواه المعيشي والصحي والغذائي.
 - 2 - تدهور معنوياته ونفسيته والعبث بإنسانيته وتحطيم كرامته واستئلال إنسانيته.
 - 3 - حقيقة الفرد الأوربي البشعة المفطورة على حب الاستئلال والاسترقاق.
 - 4 - استحالة قيام نهضة بالإنسان الجزائري المدمر جسديا وروحيا ونفسيا.
- وفي ظل هذه الأوضاع المزرية عاش الشعب الجزائري وبنى المدارس والمساجد والمدارس وتمسك بدينه ولغته ووطنه وأصلح ما استطاع، حتى كوّن جيل الاستقلال والحرية المنشود.

خامسا- الأوضاع الثقافية والعلمية: (1830 - 1954م)

حرف الكثير من باحثي ومؤرخي الاستعمار الفرنسي حقائق التاريخ لاسيما تلك التي لها صلة بمستوى الشعب الجزائري العلمي والثقافي والحضاري، وذلك

(58) انظر: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 - 1871م، دار دحلب، الجزائر، الطبعة الأولى، 1992م، ص 105 و107. وبوعزيز، المجاعة بالجزائر، ص 8 و10.

(59) انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، ج 3، ص 39 و40، بتصرف.

بغية إضفاء طابع التحضير والتمدين على حملتهم الاستعمارية الغازية، ونفي طابع الغزو والتدمير والإبادة.. التي حملتها إلى الجزائر⁽⁶⁰⁾.

ولكن بعض المنصفين منهم يعترفون بأن مستوى التعليم والثقافة كان أعلى من كل توقع، حتى مما كان عليه قادة وجنود الحملة الفرنسية الغازية، وفي هذا الصدد نحب أن نسجل اعتراف الفرنسي (أوجين كومبس - EUGENE CAMPS) النائب في البرلمان في خطبته الشهيرة بمجلس الشيوخ الفرنسي: ((.. لقد كان التعليم في الجزائر سنة 1830م أقل تفهقرا مما جعلته السلطة العامة الفرنسية بعد الاحتلال، لقد كان هناك - في الجزائر - ما يزيد عن ألفي مدرسة ابتدائية وثانوية وعليا، وكان الأساتذة المتخصصون يعلمون التلاميذ الذين يقبلون بغاية الاجتهاد على دروسهم، وكانت كذلك الدروس العامة تنتظم للناس في جميع المساجد للكبار وللصغار، ومن بين تلك المدارس الألفين كان يوجد بالعاصمة وحدها ثمانين مدرسة متنوعة..))⁽⁶¹⁾.
والشهادة التي سقناها لأحد النواب في الفرنسيين هي اعتراف صادق يكشف عن مستوى التربية والتعليم الذي كانت تتمتع به الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي فقد كان نظاما تعليميا وتربويا وإداريا دقيقا ومتميزا، أرسى دعائم العلماء والفقهاء الجزائريون الأولون أمثال: سحنون والونشريسوالمغلي... واستمر عليه المتأخرون أمثال: الباجي وابن عطية وابن خلدون وابن عاشر... ثم تمسك به العلماء المحدثون أمثال الونيسي وابن زقوطة وابن الفكونوابن الموهوب وابن سماية، وغيرهم⁽⁶²⁾.
وبه جابهوا مشاريع المسخ والتشويه الاستخراجية الفرنسية منذ أن وطأت أقدامهم هذه البلاد.

1 - أوضاع الجزائر العلمية قبيل الاحتلال:

إن التعليم الذي كان منتشرا في الجزائر قبيل الاحتلال هو التعليم العربي الإسلامي التقليدي، الموروث عن علوم وتراث ومعارف العصور الإسلامية الاجتهادية والتقليدية معا، ويتركز موضوعه أساسا على دراسة العلوم العربية واللغوية والأدبية والعلوم الدينية، بالإضافة إلى بعض العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والحساب والفلك والجغرافيا⁽⁶³⁾.

وأماكنه كانت الكتاتيب القرآنية والجوامع والمساجد والرباطات والزوايا والمدارس التي بلغ عددها قبل دخول الاستعمار حوالي ألفي مدرسة، بالإضافة إلى اشتها حواضرها العلمية الثلاث: (تلمسان. بجاية. قسنطينة) بكثرة طلابها وعلمائها ومكتباتها وكتبها⁽⁶⁴⁾.

(60) انظر: سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ص 13.. 42. وتاريخ الجزائر الثقافي.

(61) الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 535.

(62) لانريد إغراق الهوامش بالتراجم كما يفعل الكثير من الباحثين، وبإمكان القارئ مراجعتها في معاجم المؤلفين والطبقات والسير... فترجمة هؤلاء العلماء المذكورين تكلف صفحات زائدة في البحث ولا تغني فيه شيئا.

(63) انظر: تركي رابح، ابن باديس، ص 124، بتصرف.

(64) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 125 و126، بتصرف.

وقد بسط الأستاذ أبو القاسم سعد الله في موسوعته الشهيرة (65) بإسهاب واقع الجزائر التعليمي والثقافي، مشيراً إلى عدد المدارس والزوايا والكتاتيب قبيل الاحتلال، وإلى تنوعها وكثرتها وتأثيرها وتوزعها على كثير من المدن الجزائرية، منوها باختصاص الحواضر العلمية الثلاث: (تلمسان. بجاية. قسنطينة) بالمدارس العلمية العالية، التي كان الطلاب يتلقون فيها أشهر علوم زمانهم: العربية والدينية، واضعاً في موضع المقارنة مستوى المادة العلمية المدروسة في تلك الحواضر من حيث الكم والكيف، مع مثيلاتها من الجامعات الإسلامية الكبرى آنذاك: (الأزهر. الزيتونة. القرويين)، بالإضافة إلى وجود مدرسة للتعلم في كل قرية أو بلدة أو أي تجمع سكاني صغير ريفي (66).

مبيناً في نفس الوقت أن الجزائر قد شهدت نهضة ثقافية وفكرية وعلمية وأدبية تمثلت في كثرة عدد العلماء والقضاة الذين كانوا يعدون بالمئات، وكذلك الشعراء والكتاب والمعلمين والأطباء وبائعي الأعشاب من الصيادلة، كما تمثل ذلك أيضاً في كثرة عدد المساجد والجوامع والزوايا والكتاتيب، وفي كثرة عدد المصنفات العلمية، ولاسيما في الحواضر العلمية الشهيرة التي كانت تعد بالآلاف (67).

وقد كان التعليم العربي الحر قديماً يشمل مراتب أولى تعطى للصغار في الكتاتيب، ويقبل عليها الناس إقبالاً شديداً، فلا تجد حارة من حارات المدن أو القرى أو مضرباً من مضارب الخيام أو أي دشرة إلا وبها (الكتاب والطالب)، وكان التعليم بها ابتدائياً بسيطاً، يشمل القراءة والكتابة والقرآن الكريم.

وبفضلها كانت الأمية معدومة لدى الفرد والمجتمع الجزائري، ولم تنتشر فيه إلا بعد الاحتلال، وذلك بسبب اشتغال كل الجزائريين بتثبيت دعائم أمنهم ومقاومة الغزاة، منشغلين بذلك الجهاد عن تعليم أبنائهم (68)، حتى أنه يوم دخول الفرنسيين للجزائر كانت نسبة من يعرفون القراءة والكتابة من أبناء الجزائريين حوالي 55% من مجموع السكان في الوقت الذي كانت نسبة الأمية مرتفعة لدى جنود الحملة حتى كادت تبلغ الخمسين بالمائة بين الجنود والمعمرين (69).

وقد كان التعليم في مراحل الابتدائية والمتوسطة والعالية بالمجان بل تصرف لطلبته جميع وسائل العيش وسائر متطلبات الحياة الاجتماعية والعلمية من نفقة الأوقاف الإسلامية، التي كان يوجد بمدينة الجزائر وحدها قرابة ثمانية آلاف عقار تابع للأوقاف تصرف إيراداتها على طلبه العلم (70).

وأما التعليم الثانوي فقد كان يتم في المساجد الكبرى التي كانت بجوارها المدارس، وفي الزوايا المشهورة مثل معهد الهامل ببوسعادة، ومعهد سيدي اللولي ببجاية، يتولاها شيوخ مشهود لهم بالعلم والدراية والتقوى مجازين من علماء

(65) انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، 1985م، ج 1، ص 273..

(66) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 1، ص 273.. 286، بتصرف.

(67) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 1، ص 273.. 286.

(68) انظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 304.

(69) انظر: تركي رابح، ابن باديس، ص 126.

(70) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 129.

الحواضر الجزائرية الكبرى، أومن غيرها من الحواضر العلمية الاسلامية الشهيرة(71).

وبالإضافة إلى تولي الأوقاف نفقات الطلبة والأساتذة فإن سبل الخيرات كانت تتكفل بنفقات تلك المدارس والزوايا من: صيانة واعتناء وتجهيز وتلبية حاجات ومتطلبات..(72).

وقد كان بمدينة الجزائر يوم احتلالها حوالي ثمانين مدرسة وكتابا، وفي قسنطينة يوم احتلالها سنة 1837م قرابة السبعين مدرسة وكتابا، وفي تلمسان كان بها قرابة الخمسين مدرسة(73).

2 - التعليم العالي:

أما التعليم العالي فقد كان في جوامع ومساجد الحواضر العلمية الكبرى (تلمسان. بجاية. قسنطينة) بالإضافة إلى الجزائر التي اضطلع بها علماء مجازين سبق لهم أن تكونوا في إحدى الحواضر العلمية الإسلامية الشهيرة (الأزهر. الزيتونة. القرويين) وأجيزوا منها(74).

وكانوا يتلقون في المعاهد العليا - الثانوية - علوم عصرهم التالية:

1 - النحو: متن الأجرومية بشرح الكفراوي، والشيخ خالد الأزهري، ثم القطر لابن هشام، وحاشية السجاعي، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودي، وشرح ابن عقيل، والأشموني.

2 - الصرف: متن الزنجاني بشرح سعد الدين التفتزاني، ولامية الأفعال بشرح بحرق، وغيرهما..

3 - اللغة: مقامات الحريري، وقطع مختارة من الشعر والنثر.

4 - العروض: متن الكافي بشرح الدمهوري، والجزراجية بشرح الأخضرري.

5 - البيان: الجوهر المكنون بشرح الدمهوري، والسمرقندية بشرح العطار.

6 - التفسير: الجواهر الحسان في تفسير القرآن لسيدى عبد الرحمن الثعالبي.

7 - القراءات: الشاطبية، وغيث النفع لسيدى علي النووي.

8 - التوحيد: المنح الفكرية على متن الجزرية، وحاشية زكريا الأنصاري.

9 - الحديث: موطأ الإمام ملك بشرح الباجي، والزرقاني. وصحيح البخاري بشرح القسطلاني.

10 - مصطلح الحديث: متن البيقورية بشرح الزرقاني.

11 - الفقه: المرشد المفيد بشرح ميارة، متن رسالة أبي زيد القيرواني بشرح أبي الحسن، و متن خليل بشرح الدردير، وشرح الخرشي.

(71) انظر: المدني، كتاب الجزائر، ص 283 و304.

(72) انظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 210، بتصرف.

(73) انظر: تركي رابح، ابن باديس، ص 127. والجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 537 و538.

(74) انظر: المدني، كتاب الجزائر، ص 284. ولمزيد من الاطلاع حول تاريخ الحواضر العلمية الثلاث: (الأزهر. الزيتونة. القرويين) انظر: الطاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، ص 44 و45. وأنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا، ص 138 و139. ومحمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، ص 13..

12 - أصول الفقه: متن الورقات لإمام الحرمين بشرح الحطاب وتنقيح الفصول في الأصول للقرافي.

13 - أصول الدين: رسالة السنوسي بشرح البيجوري، والجوهرة للقاني بشرح ولده عبد السلام، ومتن الخريدة بشرح الدردير، والعقائد النسفية بشرح التفنزاني.

14 - علم الفلك: متن السنوسي بشرح المؤلف، وشرح الوزيري، ونظم السراج بشرح مؤلفه، ومفيد المحتاج للأخضري (75)، وغيرها..

والمتمعن في العلوم التي كانوا يلقنونها لطلاب العلم آنذاك العصر يلاحظ

مايلي:

1 - تناول طلاب العلم لكل العلوم العربية والدينية الشهيرة.

2 - ارتفاع مستوى التعليم وارتقاؤه إلى درجة الحواضر العلمية الإسلامية المشهورة.

3 - قدرة العلماء الجزائريين على تناول علوم عصرهم العربية والدينية والعقلية.

3 - مكانة المعلم:

وكان للمعلم مكانة مرموقة ومهابة في المجتمع فهو المقدم فيه، وبه تحل مشاكله وتقضى أموره ومنه تؤخذ الفتوى الصحيحة.. ولا يفصل في أمر من أمور المجتمع إلا بحضوره(76).

وكان الأستاذ يعينه الناظر المتصرف في شؤون الأوقاف بتوصية من أرباب العائلات وتخصص له دار مجانية مجهزة أحسن تجهيز ممولة من توابع الأوقاف بالإضافة إلى اشتغاله أيضا بأمر المسجد من: أذان وإقامة وإمامة وخطبة وحضوره لسائر المناسبات، وفي مقابل ذلك كان يتلقى أجره من أموال الأوقاف، كما كان أيضا يتلقى من أولياء التلاميذ الذين كانوا يدرسون عنده مايلي:

1 - منحة مالية بحسب الوضع المالي لكل عائلة، والتي تصل أحيانا إلى حوالي 14 فرنكا ذهبيا.

2 - هدايا بمناسبة الأعياد الدينية المختلفة (العيدين. المولد. عاشوراء..)، بما يقارب 5 فرنكات ذهبية.

3 - تبرعات في المواسم الفلاحية المختلفة، وتبرعات بمناسبة ختم أبناءهم حفظ القرآن كله، أو لأجزاء منه، وتقدر بحوالي 11 فرنكا ذهبيا.

وبالتالي يصبح مجموع ما يتقاضاه المعلم في السنة من ثلاثين إلى خمسين فرنكا ذهبيا(77).

وهذا المبلغ كبير جدا إذ يكفي لشراء هكتار من الأراضي الخصبة، وهذا يدل على قدر ومكانة المعلم والعلم وأهله، كما يدل على مدى احترام وتوقير الجزائريين للعلم وللعلماء.

وبهذا النسق التعليمي والثقافي والديني واللغوي الراقى شكل الجزائريون ثوابت شخصيتهم الوطنية بالخصوصيات والمميزات العربية الإسلامية التالية:

(75) انظر: إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، 1983م، ص 76 و77 و78.

(76) انظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 273..

(77) انظر: زوزو، نصوص ووثائق، ص210.

- 1 - الدين الإسلامي الحنيف الذي حماهم لما تمسكوا به من كل عوامل الإنحراف والمسخ والتشويه..
- 2 - اللغة العربية، التي وحدت فكرهم ومشاعرهم، وقوت رابطتهم ووحدتهم الوطنية والاجتماعية.
- 3 - التاريخ العربي الإسلامي الذي شكلهم وصهرهم في بوتقة واحدة روحا وشعورا وتصورا.
- 4 - الثقافة العربية الإسلامية بخصوصياتها وثوابتها الربانية ومتغيراتها البشرية الأخلاقية، التي ميزتهم عن غيرهم من الأمم الأخرى.
- 5 - الوطن الجزائري الذي عاشوا فيه حقا طويلا وشكلوا فيه مشاعرهم وأحاسيسهم التاريخية. (78)

4 - أوضاع الجزائر العلمية بعيد الاحتلال:

ونحب أن نختم هذا المحور بالتقرير الذي قدمه قائد الفرقة العسكرية بإقليم قسنطينة (اليوتنان جنرال بيدو - PIDEAUX) إلى الإدارة الاستعمارية المركزية بوزارة الحرب الفرنسية يوم 12/02/1847م، عن مستوى التعليم ودور الثقافة بقسنطينة بعد عقد من سقوطها مبينا مكانتها وأهميتها، إذ يقول: ((لا جدال في أن مدينة قسنطينة كانت منذ الفتح الإسلامي مركزا رئيسيا بالمنطقة فكانت مدارسها أعلى من مدارس الجزائر ووهران، ولم تتفوق عليها في مضمار السمعة والعلم سوى مدارس تونس، والقاهرة بالمشرق، وعند الاستيلاء عليها عام 1837 كان يوجد بها خمسة وثلاثون مسجدا وسبع مدارس تتسع لعدد من التلاميذ يتراوح بين 600 و700 تلميذا يتلقون فيها تعليما يعرف بالتعليم الثانوي، بالإضافة إلى دروس أخرى كان يلقيها أشخاص ذوو سمعة واسعة يحضرها جمع غفير من الطلاب والمستمعين حتى لتغص بكثرتهم المساجد.. وفي نفس الفترة كانت بالمدينة تسعون مدرسة ابتدائية يتردد إليها حوالي 1350 طفلا لم يبق منهم اليوم سوى ستين شابا يتابعون تعليمهم الثانوي، أما عدد المدارس فقد انخفض إلى ثلاثين كما انخفض عدد التلاميذ إلى 350 تلميذا..)) (79).

والمتمعن في هذا التقرير الصادر عن قائد من قادة الاحتلال يكتشف من خلاله المستوى التربوي والتعليمي في المدينة مقارنة بمثيلاتها من الحواضر العلمية الجزائرية والعربية والإسلامية، كما يتبين مكانة قسنطينة الدينية والثقافية والعلمية، بالإضافة إلى عدد المساجد والمدارس ونوعية ومستوى التعليم الموجود بها، وكذلك نوعية المدرسين القائمين على التعليم فيها.

وعليه - وباعتراف الفرنسيين أنفسهم - فلم يكن الشعب الجزائري شعبا متخلفا، بل كان شعبا متعلما متحضرا، يتقن أغلب سكانه القراءة والكتابة، ويضم ترابه قرابة الألفي مدرسة وجامع ومسجد وزاوية، تنشر العلوم، وتبث المعارف، وتنور الشعب. ولكن ماذا فعل الفرنسيون لما دخلوا إلى الجزائر؟

(78) انظر: تركي رايح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص 54، بتصرف.

(79) عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 209 و210، بتصرف.

ولنحاول الآن تتبع سياسة فرنسا الاستعمارية التعليمية والتربوية والثقافية التي اتبعتها مع الشعب الجزائري المستضعف في أرضه وقيمه ولغته ودينه.

سادسا- سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر:

تشير التقارير الفرنسية التي صدرت عن مسؤولي الإدارة التعليمية الاستعمارية المباشرين، وفي تقريرها المؤرخ يوم 1847/02/12م أنه في الجزائر العاصمة وبعد مرور عقدين من استعمارها اختفت منها العديد من المساجد وهدمت فيها خمس زوايا وصودرت منها عائدات المساجد والزوايا ورباطات الخير، لتتحول باتجاه آخر يخالف مقاصد ووصايا الواهبين والواقفين لممتلكاتهم.

ولم يعد الأساتذة والمعلمون يتلقون سوى راتب متواضع، ولم تعد دروسهم منظمة مبرمجة كما كانت عليه قبل الاحتلال إلا قليلا منها، بالإضافة إلى تراجع مستوياتها..(80).

ويضيف التقرير متناولا وضع الزوايا في أوساط سكان بلاد القبائل التي لم يعد لها وجود وتأثير سوى بالاسم فقط، ذلك أن حملاتنا العسكرية قد شنتت جموع الطلبة، وزادت في عدد أعدائنا من طلبة العلم، في حين أن المخطوطات التي كانت تشكل قاعدة للتعليم أُلْف وأحرق جانب كبير منها..(81).

ويخلص التقرير إلى النتيجة التالية: ((.. والنتيجة أننا لا نقدر في زمن معين العثور على رجال أكفاء يتولون مناصب الإفتاء والقضاء ويتمكنون من اكتساب النفوذ بعلمهم، هذا العلم الذي هو ضروري لسياستنا في الجزائر)) (82).

هذه اعترافات الفرنسيين أنفسهم عن واقع التربية والتعليم في الجزائر بعد عقدين من الاحتلال، والتي كان يفترض - حسب ادعاءات رجال الحملة الفرنسية - أن تتحضر وتتمدن وتتقدم، لا أن يؤول أمرها إلى الصورة البشعة التي قدمها الفرنسيون أنفسهم.

وفي هذا الصدد نسوق شهادة أخرى صادرة عن المؤرخ والباحث الفرنسي (بولارد - POLARD) الذي يصف حالة التربية والتعليم في الجزائر غداة الاحتلال بقوله: ((.. إن وصول الفرنسيين إلى الجزائر أحدث بلبله عميقة في عالم المفكرين والأدباء، لقد ترك أغلب العلماء كراسي تدريسيهم، وتفرق التلاميذ في البلاد، وعضوا عن الدروس العامة التي كانت تؤخذ في الاجتماعات أخذ أولئك يبحثون عن فك معميات العلوم في دروس منعزلة، وبمدارس من الدرجة الثانية، أو في الزوايا البعيدة، بينما وضعت إدارة المساجد في يد طماعين، يحولون مصارف الأوقاف لجيوبهم، ومنذ ذلك الوقت أهملت كل المدارس تقريبا..)) (83).

فالمدارس والجوامع والمساجد والزوايا والكتاتيب دمر معظمها، وشرد طلبة العلم منها، وضيق على العلماء فيها، ومزقت وأُلْفت كتبهم ومصنفاتهم، وحرموا من نفقات الأوقاف ومعوناتها وجراياتها، وفقدت الكثير من الدروس نظامها ورتاباتها،

(80) انظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 207.

(81) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 208.

(82) المرجع السابق نفسه، ص 208.

(83) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 535.

وتذبذبت الكثير من الدروس، وانقطع عنها الكثير طلابها، وبالتالي تراجع مستوى العلم والتعليم والفتوى على عكس ما كان عليه في الفترة السابقة للاحتلال.

لأن الفرنسيين بقرار الضم والإلحاق الذي استصدروه يوم 1834/07/22م في حق الجزائر وشعبها، ضموا معه كل شيء بما في ذلك المؤسسات التعليمية والدينية وغيرها، وأحقوها مباشرة بوزارة الحرب الفرنسية، وصار يسيرها مفتشان أحدهما للتعليم العام، وثانيهما للمدارس الابتدائية تحت إشراف الوالي.

وظلت مسائل التعليم من اختصاص وزارة الحربية إلى تاريخ 1848/08/07م باستصدار أول قرار يعيد تنظيمها، ثم أعقبه القرار الثاني الصادر يوم 1848/09/08م عن السلطات التنفيذية⁽⁸⁴⁾، وليوضع بهذين القرارين حد للنظام السابق، ولترتبط مصالح التربية والتعليم في الجزائر بوزارة التعليم الفرنسية، ولتنشئ بعدها أكاديمية الجزائر يتولاها (العميد - الريكتور) الذي يشرف على المصلحة ويتولى أمورها ويحضر اجتماعات مجلس الحكومة، ويراسل وزير التربية والتعليم مباشرة، ويشرف على جميع مراحل التعليم ومستوياته باستثناء المدارس الإسلامية التي بقيت تابعة مباشرة لوزارة الحربية الفرنسية.⁽⁸⁵⁾

1 - سياسة فرنسا القانونية التعليمية:

وباستصدارها لقراري سنة 1848 تكون إدارة الاحتلال قد ألحقت مصالح التعليم العربي الإسلامي ومؤسساته الجزائرية بها مباشرة، استجابة لقرارها بالاستيلاء على جميع الأوقاف الإسلامية في سائر القطر الجزائري الصادر يوم 1830/09/08م⁽⁸⁶⁾، ثم تبعت هذه القرارات الاستعمارية قرارات وقوانين كثيرة تهدف جميعها إلى إحكام السيطرة الاستعمارية على القطاع التربوي والتعليمي والثقافي والديني.. في الجزائر. بهدف استكمال احتلالها الفكري واللغوي والثقافي بعد استكمال احتلال ترابها.

ثم جاءت القوانين والمراسيم تترى، ومنها مرسوم 1850/09/30م القاضي بإنشاء ثلاث مدارس عليا في، تعلم العلوم العربية والدينية بالإضافة إلى العلوم الفرنسية سميت تلك بمدارس (الفرنكوميزيلمون - FRANCO MUSULMANT) واحدة في الجزائر، والثانية في تلمسان، والثالثة في قسنطينة⁽⁸⁷⁾.

ثم جاء ليزكيه مرسوم 1883/02/13 الذي يجعل من التعليم الرسمي في الجزائر كله تعليما فرنسيا خالصا في: اللغة والمناهج والوسائل والتوجه، وتضمن المرسوم إنشاء نوعين من المدارس التعليمية إحداها خاصة بأبناء الأوربيين

(84) ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدني تاريخا مقاربا لهذا التاريخ هو 1848/08/16م في كتاب الجزائر، ص 239.

(85) انظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 214.

(86) انظر: المدني، كتاب الجزائر، ص 247.

(87) انظر: تركي رابح، التعليم القومي، ص 140، بتصرف.

المستوطنين بامتيازاته وخصوصياته الرفيعة وليكون المستوى التعليمي الأول في الجزائر (88).

والنوع الثاني التعليم الخاص بأبناء الجزائريين (الأهالي - لانديجان) الذي استبعدت عنه ثقافته ولغته وحضارته العربية الإسلامية، وجعلته تعليماً فرنسياً خالصاً في المرتبة الثانية من غير امتيازات وخصوصيات الدرجة الأولى، مع تعليم اللغة العربية في المرحلة الثانوية والعالية اختيارياً، كما أشار المرسوم إلى تعليم الجزائريين العربية إلى جانب الفرنسية في المرحلة الابتدائية، غير أنه لم يطبق أبداً بحجة عدم وجود مدرسين لتعليم اللغة العربية (89).

2 - قوانين محاربة اللغة العربية:

وقد لجأت الإدارة الاستعمارية إلى استصدار مثل هذه القوانين والمراسيم بهدف تطويق وإبعاد اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية، نزولاً عند دوافعها الاستكبارية المتعددة، التي من أهمها:

1 - تأرجحها بين نزعتين استعماريّتين، كلاهما خسيصة من الناحية الإنسانية، ومخالفة لأبسط مبادئ حقوق الإنسان الذي تدعيه الثورة الفرنسية، إذ تحث النزعة الاستعمارية الأولى إلى ضرورة تعليم الجزائريين باللغة الفرنسية تمهيداً لمسحهم وفرنستهم وإدماجهم النهائي في الرابطة المسيحية. والنزعة الثانية التي تنادي بضرورة حرمانهم بتاتا من كل تعليم سواء أكان باللغة العربية، أو باللغة الفرنسية، بدعوى أن تعلمهم سينورهم وبالتالي سيؤدي بهم - أجلاً أو عاجلاً - إلى طلبهم الحرية والانعقاد وطلب الانفصال عن فرنسا (90).

2 - تعصب المعمرين الأعمى وحقدهم الدفين وكبريائهم وأنانيتهم.. واعتبار أنفسهم سادة والجزائريين عبيداً وخداماً لهم ولمشاريعهم الاستخراجية وبالتالي فلا يحق للعبيد أن يتعلموا.

3 - رفض الإدارة الاستعمارية والمعمرين خاصة تخصيص ميزانية إضافية لترقية التعليم الخاص بأبناء الجزائريين.

وهذا التضييق سبب عزلة للثقافة العربية الإسلامية وللغة العربية، كما دفع الجزائريين إلى التمسك بآخر ما تبقى لهم من حصون المناعة والتحصين العربي الإسلامي يستمسكون به لنهضتهم القادمة.

3 - وسائل السياسة الاستعمارية:

ولإنجاح سياستها الثقافية الاستثنائية لمطاردة الوجود الأخير للثقافة العربية الإسلامية في الجزائر عمدت الإدارة الاستعمارية إلى الأساليب والوسائل الاستعمارية التالية:

1 - حصر تعليم الجزائريين في أقل وأضيق الحدود.

(88) انظر: تركي رابح، التعليم القومي، ص 125، بتصرف.

(89) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 125، بتصرف.

(90) انظر: تركي رابح، ابن باديس، ص 139، بتصرف.

- 2 - التقليل من إنشاء المدارس الخاصة بالجزائريين في مختلف مراحل التعليم.
- 3 - تحديد عدد التلاميذ الجزائريين في كل مراحل التعليم، إذ دلت الاحصاءات الرسمية الفرنسية على أن الشعب الجزائري كان يزيد كل عام بمقدار مائة ألف نسمة في حين أن التلاميذ المقبولين للدراسة في المدارس الفرنسية يصل إلى 3600 تلميذ فقط. وهذه نسبة ضئيلة وتافهة جدا إذا ما قيست بعدد المواليد، ولذلك فقد كانت الأمية منتشرة في الجزائر انتشارا كبيرا بحيث تصل إلى نسبة 95 % في صفوف الرجال، وإلى نسبة 99 % في صفوف النساء⁽⁹¹⁾.
- 4 - خفض ميزانية التعليم الخاصة بالجزائريين إلى أقل حد ممكن.
- 5 - الاهتمام بالتعليم النظري على حساب التعليم المهني والفني التطبيقي.
- 6 - تشجيع الأوربيين على التعليم بمختلف فروعهم، وجعل الأفاق والمجالات واسعة أمامهم وغلقتها أمام الجزائريين.
- 7 - وضع كل الشروط القاسية أمام الجزائريين في الامتحانات والمسابقات.. وذلك لتثبطهم وعرقلتهم.
- 8 - فرض مصاريف تعليمية باهظة بعد المرحلة الابتدائية المجانية، تفوق كل إمكانيات وطاقات معظم الجزائريين المحدودة والضعيفة⁽⁹²⁾.
- 9 - إصدار القوانين والقرارات التي تقلص من مكانة الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وعلى رأسها قرار 1892/10/18م، القاضي بوجوب الحصول على رخصة لفتح مدرسة عربية لتدريس اللغة العربية والدين الإسلامي⁽⁹³⁾، الذي تدعمه بقانون 1904/12/24م الذي يحظر على أي جزائري أن يفتح أو أن يتولى إدارة مدرسة عربية أو كتاب لتعليم القرآن الكريم إلا بترخيص من عامل العمالة الفرنسي في المناطق الشمالية التي تخضع للحكم المدني، أو في المناطق الجنوبية الصحراوية التي تخضع للحكم العسكري المباشر⁽⁹⁴⁾.
- ولعل وصف الزعيم المصري الأستاذ محمد فريد بك وجدي الذي زار الجزائر سنة 1901م ووصف لنا حال أهلها المستضعفين، وحالة التربية والتعليم ومؤسساته التعليمية والثقافية خير وصف، وأرخ لها خير تأريخ، إذ يقول: ((.. فالتعليم الديني لا وجود له تقريبا ولولا من يتكبد مشقة طلب العلم من جامعا الأزهر لأصبح نسيا منسيا، أما ما اتفق على تسميته بالتعليم العصري فلا وجود له بالنسبة للمسلمين بالمرّة، نعم يوجد بالقطر الجزائري مئات من المدارس الابتدائية الفرنسية على طراز مدارس فرنسا لكنها كلها مخصصة لأولاد الفرنسيين، ولا تفيد من يدخلها من العرب لعدم تعليم اللغة العربية بها، وباختصار فحالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جدا ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات، بل ربما تدرس اللغة العربية بالمرّة، فلا الحكومة

(91) انظر: تركي راجح، ابن باديس، ص 145، بتصرف.

(92) انظر: تركي راجح، التعليم القومي، ص 43، بتصرف.

(93) انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 63، بتصرف.

(94) انظر: تركي راجح، ابن باديس، ص 154، بتصرف.

الفرنسية تسعى في حفظها، ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس، لأن الاجتماع ممنوع خوفاً من أن تشتغل جمعياتهم بالأمر السياسي.⁽⁹⁵⁾

تبين هذه الشهادة الحية واقع التربية والتعليم في الجزائر مع مطلع القرن العشرين، ذلك الواقع التربوي المنهار الذي استمر على وضعه المزري إلى استقلال الجزائر فألى قبيل الحرب العالمية الثانية كان عدد الأطفال الجزائريين القابلين للتمدرس حوالي مليون ومائتي ألف طفل لا يلتحق منهم بالمدارس الفرنسية إلا مائة وعشرة آلاف فقط، هؤلاء يجدون مقاعدهم الدراسية وهذا بعد قرن كامل من الاحتلال الفرنسي للجزائر⁽⁹⁶⁾.

وإلى سنة 1944م تشير الإحصاءات الفرنسية إلى أن نسبة التعليم بين الجزائريين بلغت 8% فقط في الوقت الذي تبلغ فيه لدى أبناء المعمرين 100%⁽⁹⁷⁾. وظلت القوانين والقرارات الاستعمارية التعسفية تترى لمحاربة الحصون الأخيرة للوجود العربي الإسلامي في الجزائر حتى بعد مرور قرن كامل من الاحتلال فقد شهدت فترة الثلاثينيات صدور قانونين خطيرين ومصيريين في حياة الجزائر وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أولهما قانون ميشال الصادر يوم 16/02/1933م القاضي بحرمان رجال ووعاظ وأئمة جمعية العلماء من الوعظ في المساجد، وقانون الثامن من مارس 1938م المشؤوم الذي يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر⁽⁹⁸⁾.

والخلاصة التي نصل إليها عن وضع الجزائر التعليمي والثقافي نجملها في العناصر التالية:

- 1 - عزم الإدارة الاستكبارية الفرنسية على محاربة اللغة العربية لغة الجزائريين الأصلية.
- 2 - حرص الإدارة الاستكبارية الفرنسية على محاربة الإسلام واستئصاله من قلوب الشعب الجزائري.
- 3 - وحشية الأساليب الاستعمارية الفرنسية في محاربة الشعب الجزائري.
- 4 - تشويه ومسح وتغريب وفرنسة الشعب الجزائري عن دينه ولغته وثقافته وقيمه العربية الإسلامية.
- 5 - كشف حقيقة الاستعمار البشعة والمتناقضة بين عالم المثاليات الذي كان ينادي به في شعارات الثورة الفرنسية (حرية. عدالة. مساواة) وبين معاملتها الاستكبارية الاستعبادية للشعب الجزائري.

⁽⁹⁵⁾ محمد فريد بك وجدي، التعليم والمدارس في الجزائر، جريدة اللواء، عدد 612، القاهرة، 1901/10/13م. نقلاً عن تركي رابح، ابن باديس، ص 152.

⁽⁹⁶⁾ انظر: عبد الكريم أبو الصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931 - 1945م، دار البعث، قسنطينة، الطبعة الأولى، 1401هـ - 1981م، ص 42، بتصرف.

⁽⁹⁷⁾ انظر: تركي رابح، ابن باديس، ص 146.

⁽⁹⁸⁾ انظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 - 1939م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1980م، ص 132.

ولذا فإن السلطات الاستعمارية تنبعت إلى أخطائها الثقافية تجاه الجزائريين، وإلى أهمية المثقف الممسوخ ودوره السلبي تجاه لغته ودينه وثقافته، كما تنبعت كذلك إلى دوره في قيادة المجتمع، وصنع حركية الحياة، فسارعت بين الحربين العالميتين لزيادة عدد الطلاب الجزائريين في الجامعات الفرنسية بفرنسا والفرنسية بالجزائر، وذلك لتحقيق مشاريع الموالاة المستقبلية فسعت بالأساس إلى:

1 - خلق نخبة جزائرية استعمارية مثقفة وموالية لها روحا وعاطفة وشعورا ولغة وسلوكا.

2 - خلق نخبة فكرية وثقافية معزولة عن قيمها ومجتمعها ومثلها العلاء.

3 - خلق نخبة حريصة على استمرار سياسة الاستعمار الثقافية.

4 - إيجاد جيوب من التبعية الفكرية اللغوية والثقافية الفرنسية في كيان وروح الشعب الجزائري العربي المسلم بغية تحطيمه وتقويضه من الداخل.

5 - تحقيق الشهود والتواجد الاستكباري المتطور بعد انكشاف أشكاله القديمة.

6 - ضمان استمرار عمليات الهيمنة والتدجين.. بواسطة اللوبيات الثقافية الاستغرابية الجزائرية الشكل الفرنسية الروح واللغة.

وفي ظل هذه الأوضاع التعليمية والتربوية والثقافية المنهارة ولد وتعلم ونشأ الشعب الجزائري، وجاهد في الله حق جهاده.

سابعاً- سياسة فرنسا الثقافية في الجزائر:

1 - مستوى الشعب الجزائري الثقافي قبيل الاستعمار:

ينقل الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في مؤلفه التاريخي الشهير⁽⁹⁹⁾ شهادة تاريخية لأحد المثقفين الجزائريين يوضح فيها المستوى الفني والثقافي والأدبي الذي كانت عليه الجزائر قبيل فترة الاستعمار، والتي كانت من صميم عادات الشعب الجزائري منذ العصور الإسلامية المتقدمة، حيث يقول: ((.. هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر - حرسها الله من الفتن وحاطها من الدوائر - أنه إذا دخل شهر ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعمول إلى نظم القصائد المديحيات والموشحات النبويات، ويلحنونها عن طريق الموسيقى بالألحان المعجبة ويقرونها بالأصوات المطربة، ويصدعون بها في المحافل العظيمة، والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء من المساجد، والمكاتب والمزارات، وهم في أكمل زينة وأجمل وأحسن شارات، تعظيماً لهذا الموسم الذي شرف به الإسلام..)).⁽¹⁰⁰⁾

يشير هذا النص التاريخي إلى المستوى الثقافي والأدبي والفني الجمالي.. الذي كانت عليه عادات الشعب الجزائري في المواسم والأعياد الدينية والاجتماعية وغيرها، فهو يكشف لنا عن وجه الجزائر الثقافي المشرق، والمتمثل في مايلي:

1 - الإشارة إلى وجود العادات والتقاليد والأعراف الموقرة المتبعة في سائر البلاد الجزائرية التي يحبها ويحترمها ويطيعها، ويأتيها سائر أفراد الشعب حكماً ومحكومين.

(99) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 543.

(100) أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1975م، ص 13.

- 2 - مكانة وأهمية موسم ميلاد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لدى الفرد والمجتمع الجزائري.
- 3 - مكانة ودور الشعراء والأدباء في المجتمع، وموقع انتاجهم الأدبي لدى الخاصة والعامة.
- 4 - مستوى الفن والغناء والموسيقى الجزائرية الراقية بقصائدها وموشحاتها وأغانيها الهادفة.
- 5 - اهتمام الحكام والأعيان والعلماء وعامة الناس بهذه المناسبة الدينية، وتعظيمهم لها.
- 6 - مكانة المساجد والمزارات والمكاتب في مثل هذه المناسبات.
- 7 - الإشارة إلى الزي التقليدي الذي كان يرتديه سكان الجزائر في مثل هذه المناسبات...

ولعل الرحالة الألماني (فيلهلمسيمبرا) الذي زار مدينة الجزائر في شهر ديسمبر سنة 1831م، وكتب عنها في رحلته، حيث يقول واصفا ما شاهده: ((.. لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه، في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا، فقلما يصادف المرء هنالك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب، ومن الانصاف أن نقول: أن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية، أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلا في النادر جدا..))⁽¹⁰¹⁾.

هذه الشهادة الآتية من رحالة أوربي محايد تحمل العديد من الدلالات على رقي الفرد الجزائري الثقافي والفكري واللغوي، فقد حملت إلينا ميزة - بالإضافة إلى ميزة انعدام الأمية فيهم - كان يتميز بها الجزائريون دون سواهم من الفرنسيين أو غيرهم وهي تمكنهم من ناصية اللغة الفرنسية، وهذا يدل على مدى اهتمام الجزائريين بجيرانهم في شمال البحر الأبيض المتوسط، كما تكشف لنا عن المستوى الفكري والثقافي المنحط الذي كان عليه جنود الحملة الفرنسية.

ولذلك فإن المخطط الاستعماري الفرنسي ركز بالأساس منذ الفترة الأولى للاحتلال على محاربة وإزالة وتقويض كل المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية، وذلك عبر طرق وآليات ووسائل وأساليب وحشية سنذكرها لاحقا إن شاء الله.

2 - سياسة فرنسا الثقافية في الجزائر:

لقد كان مخطط الاستعمار - كما يذكر الدكتور عثمان سعدي -⁽¹⁰²⁾ طوال وجوده بالجزائر مبنيا على إفراغ الشخصية الجزائرية من مضمونها القومي والوطني لإحلال مضمون الشخصية الفرنسية محلها، وكان يشرف على تطبيق هذا المخطط كبار أساتذة الاستعمار الفرنسي، وهم متخصصون في كل العلوم الإنسانية

(101) أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1975م، ص 13.

(102) انظر: عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1981م، ص 93، بتصرف.

وعارفون بالدقائق الخفية للتركيب النفسي والاجتماعي للفرد الجزائري، وكان هذا المخطط ذا حدين متوازيين متكاملين: الأول مباشر، وتمثل في غلق جميع الفرص أمام الجزائري التي تمكنه من تعلم لغته الوطنية، وهذا يطبق في المدرسة على الخصوص.. والثاني غير مباشر تمثل في إفساد الذوق الفني الجزائري في الأغنية والموسيقى والمسرح والأدب، وسهر على تطبيق هذه الخطة جهاز الإعلام الفرنسي المتطور⁽¹⁰³⁾.

وكل المجهودات التي بذلتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر ضد الفرد والمجتمع الجزائري في النواحي التربوية والتعليمية والثقافية إنما هدفت بالأساس للقضاء على اللغة العربية أولاً، المقوم الرئيس للثقافة العربية والدين الإسلامي، محاولة منها لصرف الفرد الجزائري عن لغته وثقافته ودينه إلى لغة المستعمر وثقافته ودينه.

وقد مرت عمليتها التدرجية تلك بواسطة مجموعة من الاجراءات والوسائل والأساليب لتحويل الفرد الجزائري بالتدرج من فرد ناقد ومقاوم ومغالب للاستعمار إلى فرد راض بالتعايش معه، ثم إلى فرد خاضع له، ثم إلى فرد متميز بخاصية القابلية للاستعمار والاستذلال وحب الاستركاب المطلق، ثم إلى درجة المسلم المطلق بحتمية الاستعمار الفرنسي عليه وبقدر ربه المحتوم عليه وذلك بما يلي:

- 1 - محاربة اللغة العربية محاربة استئنصالية شديدة، وتقسيمها إلى ثلاث لغات: (عامية. قديمة. حديثة)
- 2 - محاربة الدين الإسلامي الحنيف كدين متكامل - حمى الجزائر عبر فتراتهما التاريخية - والتقليل من شأنه وتشويهه بشتى أساليب التشويه والمسخ.
- 3 - اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في دارها وبين أهلها.
- 4 - فرنسة مراحل التعليم وطبعها بالطابع الأوربي المسيحي.
- 5 - تشويه تاريخ الجزائر في ظل العروبة والإسلام، وضرب قيم الانتماء، ومقومات الهوية العربية الإسلامية للفرد وللمجتمع الجزائري.
- 6 - عدم تدريس الجزائريين تاريخهم الوطني العريق العربي الإسلامي، وعدم تدريس جغرافية بلادهم والعالم العربي والإسلامي، والاستعاضة عنهما بتدريس تاريخ وجغرافية فرنسا وأوروبا والصليبية، والوثنية اليونانية والرومانية البائدة⁽¹⁰⁴⁾.
- 7 - تقديم الثقافة المسيحية القوية الناهضة بديلا عن الثقافة العربية الإسلامية الضعيفة المهزومة.
- 8 - ضرب ستار حديدي مقيد وعازل للجزائر عن وسطها الطبيعي وامتدادها العربي الإسلامي، وذلك بهدف عزلها حضاريا.
- 9 - تضيق الخناق وضرب الحصار بالنفي والتشريد والسجن والغرامات وقيود التراخيص، وغيرها.. على كل رجال الفكر والعلم والفقهاء والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة.

(103) انظر: عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، ص 93.
(104) انظر: تركي رابح، التعليم القومي، ص 107 و108، بتصرف.

10 - فرنسة الإدارة ووسائل الإعلام وجميع مجالات الفكر والأدب والفن والثقافة.. ومطاردة حصون الثقافة العربية الإسلامية في جميع المجالات، وذلك بغية محوها من عالم الشهود الحضاري.

11 - تعطيل النوادي العربية الحرة التي كانت تقوم بنشر اللغة العربية، وتربية النشء على القيم العربية الإسلامية الأصيلة.

12 - تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية لكل لمسلمين الجزائريين، وفرض الاحتكام إلى القوانين الوضعية الفرنسية، أو إلى العرف والعادات بالنسبة لبلاد القبائل.

13 - اخضاع جميع المؤسسات الدينية إلى السلطة الاستعمارية المباشرة، ورفض العمل بقانون فصل الدين عن الدولة.

14 - فتح الجزائر أمام البعثات التبشيرية المسيحية على اختلاف مذاهبها، وتمكين تلك البعثات من كل الأسباب المادية والمعنوية والبشرية والقانونية.

15 - القضاء على كل مراكز الثقافة العربية الإسلامية، من: جوامع ومساجد ومدارس وزوايا وكتاتيب ورباطات ومكتبات..(105).

16 - تكوين جيل مشوه وممسوخ من الجزائريين لا صلة له بأتمته وتاريخه ولغته ودينه ووطنه.. وذلك بدمجهم في إطار الثقافة والقوانين الفرنسية ليصبحوا مسلمين فرنسين مندمجين يشكلون جيوب تبعية وولاء له في حالة وجوده ورحيله، وهو ما تم بالفعل بعيد استقلال الجزائر المظاهري سنة 1962م.

وما كاد يمضي على الجزائر والجزائريين قرن وثلاث القرن من الاستعمار حتى كانت نسبة الأمية تشكل في رجاله 95%، وفي نساؤه 98% (106).

وهذه هي حضارة أوربا المسيحية التي حملتها إلى العالم العربي والإسلامي لتحضيره وتمدينه.

ولنرى وصف الزعيم المصري الأستاذ (محمد فريد بك وجدي) لواقع الجزائريين الثقافي مع مطلع القرن العشرين، والذي تناوله بكثير من الفهم والعمق والشجاعة والإسهاب، واضعا يده على الأسباب والدوافع الحقيقية والتاريخية له، حيث يصف ذلك: ((.. كانت ربوع العلم أهلة بالطلاب وجوامع القطر الجزائري ملآن بالمعلمين والمتعلمين ودور الكتب عامرة بالمؤلفات والمطالعين، واشتهر من بين أهل الجزائر كثير من الكتبة والمؤلفين.. إلى أن أخذت هذه الحال تتبدل في أوائل القرن الماضي، وكان الفتح (107) الفرنسي الضربة القاضية على العلم وأهله بسبب اشتغال جميع الأهالي بمحاربة المغيرين على بلادهم والدفاع عن ديارهم حقبة من الزمان، وما أعقب تلك المقاومة الشديدة من مصادرة الحكومة الفاتحة لأموال أغلب العائلات الكبيرة عقابا لها عن دفاعها عن وطنها، ومهاجرة الكثير من علمائها إلى البلاد الإسلامية الأخرى، ووضع الحكومة يدها على جميع الأوقاف الخيرية بلا استثناء بما فيها المحبوسة على الجوامع والطلبة والمدرسين مقابل ترتيب مبلغ زهيد

(105) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 94.. 96 و196 و115.. 119 و311.. 318.

(106) انظر: تركي رابح، التعليم القومي، ص 95.

(107) لا يقصد الأستاذ فريد بك بمفهوم الفتح مرادفه الإسلامي وهو أبعد من أن يعد الغزو الفرنسي فتحا بدلالاته الإسلامية.

في ميزانيتها لما بقي من الجوامع بعد التي حولت إلى كنائس، أو هدمت لإصلاح طريق، أو بناء قلعة، أو استعملت ثكنة للجند، أو غير ذلك فأصبحت البلاد ولم يبق فيها من المدرسين بالجوامع إلا ما يعد على الأصابع، وقل الطالب والمطلوب، وهجرت ربوع العلم، وخربت دور الكتب، وصارت الديار مرتعا للجهل والجهلاء، وكادت تدرس معالم اللغة العربية، كما تطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية، بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل: وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة، وغيرها من السواحل والثغور..)). (108)

وفي ظل هذه الأوضاع الثقافية المتردية ولد وعاش وتربى وتعلم الشعب الجزائري، ومارس حياته ونشاطه حتى ولد جيل الثورة والحرية والاستقلال.

ثامنا- وضع الإسلام والمؤسسات الدينية: (1830-1954م)

1- وضع المؤسسات الدينية قبيل الاحتلال:

قدر عدد المؤسسات الدينية بمدينة الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي بحوالي (170) مؤسسة دينية، ما بين جامع ومسجد وضريح وزاوية ورباط ومدرسة وكتاب (109)، كما قدر عدد المؤسسات الدينية في الحواضر الثلاث الشهيرة بأعداد مشابهة ومماثلة لما كانت عليه مدينة الجزائر، ففي قسنطينة تراوح عدد المؤسسات الدينية فيها إلى سبع مدارس ثانوية، وحوالي ثمانين مدرسة ابتدائية، وعشرين زاوية وضريحا، وخمسة وثلاثين مسجدا كلها للتعلم والعبادة، كما حفلت مدينة تلمسان وبجاية بمثل ما حفلت به مدينة قسنطينة (110).

ولقد تناول الأستاذ أبو القاسم سعد الله في موسوعته الثقافية (111) عدد المساجد والجوامع في كل بلدة ومدينة، مفصلا القول في هندستها ومساحتها ونظامها وحال الأوقاف فيها، ونوعية الجرايات المسيرة لها الشهرية والسنوية، مبينا أيضا وظيفة القائمين عليها من أئمة ومدرسين وخطباء ومؤذنين وقيمين، ومذاهبها الدينية الفقهية الموزعة على المذهب الحنفي الذي هو مذهب الدولة التركية الحاكمة، والمالكي الذي هو مذهب أهلها، ومذهب الإباضية لسكان ميزاب والوسط الصحراوي (112).

كما تناول في موسوعته أيضا الزوايا والرباطات الصوفية ذات الأضرحة، ذكرا عددها وأسماء أوليائها وأضرحتها ووظائفها الرئيسية المتمثلة في التربية الروحية والجهادية ضد الغزو الاستعماري، متناولا أيضا وظائفها الأخرى الاجتماعية والاقتصادية..، ونوعية مداخيلها المالية ومصاريها، وأهمها وأكثرها تأثيرا ونفوذا في المدن والأرياف الجزائرية (113).

وقد تناول أيضا واقع الكتب والمكتبات التي كانت منتشرة في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي، مبينا عددها وتأثيرها ودورها، ونوعية العلوم والكتب التي كانت

(108) محمد فريد بك، التعليم والمدارس في الجزائر، جريدة اللواء المصرية، عدد 612، 1901/10/13م. نقلا عن: تركي رابح، ابن باديس، ص 97 و98.

(109) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 443.

(110) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 537 و538.

(111) انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 260..

(112) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 243.. 260.

(113) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 1، ص 261... 272.

تضمها، بالإضافة إلى تناوله لمكتبات الأسر والأعيان، ونوعية الكتب الموجودة فيها وأسمائها مع الإشارة إلى واقع الطباعة والنسخ والنساخين المشهورين، ودور الورق والتجليد فيها، مبينا أسماء الحكام الذين تعاقبوا على الجزائر وشجعوا الحركة العلمية فيها (114).

من خلال هذا الاستعراض السريع لحجم وعدد المؤسسات الدينية الإسلامية في بعض الحواضر الجزائرية نتبين مكانتها ودورها الديني لدى الفرد والمجتمع الجزائري الذي كان يوليها عناية كبيرة، إذ تتحكم في الكثير من شؤون الحياة والإنسان.

وإذا أضفنا لها المخزون الوقفي المحبوس لخدمتها وتسييرها، ومدھا بالجرايات والأموال اللازمة والضرورية لها، وتأديتها لوظيفتها الدينية والدينيوية أحسن أداء نتبين أهمية وخطر المؤسسة الدينية لدى الفرد والمجتمع الجزائري.

وقد تناول الأستاذ سعد الله أيضا واقع الوقف والأوقاف الإسلامية عادا إياها مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية، ومعلما من معالم التنظيم والاحكام والدقة في التسيير والتنظيم والديمومة للمنظومة التشريعية الإسلامية، وقد تناولها من حيث مضمونها ووظيفتها الخيرية فقال: ((.. يعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو أساسا يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم، وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي، وهو شرعة اتبعها المسلمون منذ صدر الإسلام، وتطورت أغراضه، وتعددت أوجهه، ومظاهره بتطور الزمن..)) (115).

وبعد أن تناوله من مظاهره الحضارية انتقل لرسم معالمه التنظيمية، والروحية حيث يقول: ((ويقوم الوقف على مبدأ شرعي وعلى صيغة قضائية ملزمة تحدد فيها شروط الوقف وأغراضه وموارده، ومصارفه، وغاياته، ونظامه الداخلي الخاص به..)) (116).

ثم تعرض لاستعمالاته وأغراضه فقال: ((.. ويستعمل الوقف في أغراض كثيرة منها: العناية بالعلم والعلماء والطلبة الفقراء، والعجزة واليتامى وأبناء السبيل، ومن أهم أغراضه العناية بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة..، وكذلك من أغراضه العناية بالفقراء والمحتاجين وغيرهم، وهي مصدر حياة وعيش للمؤسسات العلمية والدينية والاجتماعية والثقافية في العصور السابقة للاحتلال الفرنسي..)) (117).

وقد قدرت أوقاف مدينة الجزائر وحدها عشية الاحتلال بحوالي أربعين مليوناً فرنكاً ذهبياً موزعة على حوالي ألف وخمسمائة عقار وملكية متنوعة (118). وقد احصت الباحثة (خديجة بقطاش) في رسالتها العلمية (119) عدد الأوقاف في مدينة الجزائر، ونوعيتها استناداً إلى التقرير الذي وضعتة اللجنة الإفريقية في

(114) انظر: سعد الله، المرجع السابق نفسه، ج 1، ص 273.. 314.

(115) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 224.. 242.

(116) المرجع السابق نفسه، ج 1، ص 226.

(117) الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 425 و 426.

(118) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 425 و 426.

بدايات عام 1834م، ومما جاء في رسالتها مايلي: ((.. قدر عدد الأوقاف الدينية في الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي بحوالي 2600 ملكية، وعدد غير قليل في المدن الأخرى كقسنطينة ووهران.. ويمكن ترتيب الأوقاف في مدينة الجزائر كما يلي:

1 - أوقاف مكة والمدينة، وهي أهم الأوقاف، لأن دخلها يساوي ثلاثة أرباع كل مؤسسات الأوقاف، وتقسم إلى قسمين، قسم يوزع محليا، وقسم يرسل إلى مكة والمدينة.

2 - سبل الخيرات، وهي هيئة دينية تأسست سنة 1584م تشرف على عدة مساجد للمذهب الحنفي.

3 - الجامع الكبير، ويشرف على أوقافه المفتي المالكي، ويساعده ثلاثة وكلاء.

4 - الزوايا، وهي كثيرة، وتقدر في مدينة الجزائر العاصمة بتسعة عشر زاوية.

5 - أوقاف الأندلس، وقد تأسست سنة 1601م بهدف إعانة مسلمي الأندلس النازحين.

6 - الإنكشارية، وهي تكتات الإنكشارية، وعددها سبع تكتات، في كل تكتة مائة حجرة.

7 - المياه، وهي من أعمال الخير والسقاية.

8 - الطرق، ولها أوقاف تعود أموالها لإصلاح الفاسد من الطرق))⁽¹²⁰⁾.

والمتمعن في هذه الإحصاءات والأرقام المخصصة لدعم المؤسسات الدينية سيكتشف بسرعة مدى احترام وحب الجزائريين لدينهم الإسلامي، كما أنها يتبين موقع ومكانة المؤسسات الدينية في المجتمع.

وقد عرفت الجزائر - كغيرها من دول العالم الإسلامي - منصب المفتي والقاضي وقاضي القضاة، الذي كان يعين في عهد الدولة العثمانية من المذهب الحنفي مذهب الرسمي للدولة، وبصحبه كان يوجد قاض فقيه مالكي، وظيفتهما السهر على أهم قضايا الإسلام في الدولة⁽¹²¹⁾.

كما عرفت الجزائر مؤسسة المجلس الشريف، وهو المجلس الشرعي أو العلمي المكون من: قاضيين ومفتيين وكاتبين برتبة باش عدل، وكان يحضر جلساتها القضائية الباشا نفسه، وفي المجلس كانت تفصل كبريات القضايا وتعقب فيه على أحكام القضاة العاديين، وتسمع فيه تظلمات المتظلمين من الرعية، ومن صلاحياته تعيين ناظر الأوقاف وناظر المعارف المشرف على التعليم، وترسيم المدرسين وينعقد هذا المجلس كل يوم خميس بالجامع الأعظم بالعاصمة، وهو شبيه بديوان المظالم⁽¹²²⁾، وقد ألغي هذا المجلس بقرار من الإدارة الاستعمارية عام 1859م وانحصر القضاء الشرعي بعده في الأحوال الشخصية للمسلمين وتركت شؤون المسلمين

(119) انظر: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر، نقلا عن محاضر وتقاير اللجنة الإفريقية باريس، 1834م، ص 413.

(120) خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية، ص 24.. 38، بتصرف.

(121) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 512.

(122) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 512.

الأخرى يحتكم فيها للقانون الوضعي الفرنسي الاستعماري المفروض بالقوة والقمع (123).

- والمتمعن في عدد المؤسسات الدينية الإسلامية الجزائرية، وعدد الأوقاف المحبوسة لها، وقيمة الإسلام ومكانة علمائه وفقهائه في الجزائر يستخلص مايلي:
- 1 - موقع ومكانة المؤسسات الدينية المرموقة في الجزائر.
 - 2 - أهمية وضخامة الموارد المالية والملكيات العقارية المختلفة التي تدعمها.
 - 3 - احترام الفرد والمجتمع الجزائري لمؤسساته الدينية ولرجالها.
 - 4 - حرص المؤسسات الدينية على ضمان التواصل التاريخي للشعب الجزائري العربي المسلم.
 - 5 - ضمان هذه المؤسسات تحقيق انتماء الفرد والمجتمع الجزائري إلى وسطه الطبيعي العربي الإسلامي
 - 6 - دور هذه المؤسسات في الاضطلاع بمهامها الدينية والتربوية والتعليمية والتثقيفية..

هذه المؤسسات الدينية التي ستجد نفسها غير محمية وغير محترمة بمعاهدة الداوي حسين ودوبورمون بالرغم من تضمن المعاهدة لبند تضمن احترامها، وهو ما سنعالجه في المطلب الموالي إن شاء الله.

2 - وضع المؤسسات الدينية أثناء الاحتلال:

اطمأن الجزائريون - وهم يوقعون المعاهدة - إلى شرف فرنسا وشرف ملكها وشرف القائد الأعلى للجيش الفرنسي الماريسالدوبورمون وهو يوقع معهم على معاهدة 1830/07/05م، التي تتضمن مبادئ تحترم العقيدة وحرية العبادة وحرمة الدين الإسلامي وحرية الأهالي الدينية والعقدية والاجتماعية، والتي ستحترم أعراضهم وشرفهم وممتلكاتهم (124).

ومهما تكن نية الجزائريين في كراهية الأتراك، وحب التخلص من جبروتهم وحكمهم القاسي، ومهما تكن سذاجتهم وهم يقبلون على قراءة بيان الاحتلال الأول المكتوب باللغة العربية الموزع عليهم، والذي يشرح ويوضح صدق نوايا فرنسا تجاههم كمظلومين واقعين تحت سلطة الأتراك، ومهما يكن مستوى الوعي الذي كانوا عليه يومها وهم يضغطون - عبر أعيانهم - على الداوي حسين ليسلم المدينة إلى الفرنسيين، فإنهم لم يكونوا يدركون مدى المؤامرة الصليبية الحاقدة التي كانت تنتظرهم والمصير المظلم الذي كان قدرهم وقدر مؤسساتهم الدينية الإسلامية، التي كانت لقرون طويلة تعبى المسلمين لجهاد المسيحية في شمال البحر الأبيض المتوسط عبر حملات الجهاد التي أفلقت أوربا قرونا ثلاثة من الصراع الصليبي الإسلامي فإن شرف فرنسا والثورة الفرنسية بشعاراتها البراقة (حرية. عدالة. مساواة) وشرف ملكها هو الذي طمأنهم لقبول التواجد العسكري الفرنسي في عاصمتهم، لاسيما وأن قائد الحملة قد تعهد بالشرف الفرنسي وبالشرف الملكي

(123) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 513.

(124) راجع: حمدان خوجة، المرأة، ص 203 و204.

وبشرفه هو بحفظ واحترام: الحقوق والحريات والدين والممتلكات والأعراض، وغيرها من الحقوق والحريات الأساسية للجزائريين..⁽¹²⁵⁾.

وسرعان انكشف كذب العهد والشرف الفرنسي مع أول مرسوم استكباري يصدره قائد الحملة الفرنسية دوبرمون يوم 1830/09/08م، وبعد شهرين من الاحتلال فقط، القاضي بمصادرة كل الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها، ليعقبه في اليوم الموالي 1830/09/09م أيضا قرار حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير والكراء والاستعمال، على اعتبار أن الحكومة الفرنسية قد حلت محل الحكومة العثمانية والجزائرية في إدارة الأوقاف، وإنها بموجب القرارات ستصبح هي المسؤولة والمخولة بالتصرف في ريعها ومداخيلها، وكذلك في توزيعها على المستحقين لها في الجزائر، ومنذ استصدار هذين القرارات الجائرين يكون دوبرمون قد أطلق يد المسيحية والاستعمار لقتل الإسلام والإجهاد على مؤسساته ورجاله وأمواله.. التي بلغت قرابة الأربعين مليوناً من الفرنكات الذهبية⁽¹²⁶⁾.

وفي هذا الصدد تذكر الباحثة خديجة بقطاش أن الجنرال كلوزيل كان قد أصدر قراراً تعسفياً آخر يوم 1830/09/08م استهدف به حجز أملاك العثمانيين التي تشكل أملاك الداوي والبايات وجنود الإنكشارية التركية، كما تضمن القرار حجز أوقاف مكة والمدينة، ثم تراجع عنه تحت نصائح المستشارين واحتجاج علماء وشيوخ وأعيان مدينة الجزائر.

3 – قوانين الضم والاستحواذ:

ولكنه بعد ثلاثة أشهر من تراجعه أصدر قراراً آخر يوم 1830/12/07م ضم بموجبه كل الأملاك الدينية الجزائرية إلى مصلحة أملاك الدولة، وتشمل تلك الأملاك أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا⁽¹²⁷⁾، وقد تضمن القرار ثمان مواد فيها إنهاء أوقاف الحرمين الشريفين بدعوى أن مداخيلها تنفق على الأجانب ممن هم خارج البلاد وهم من غير الأهالي، وبذلك يكون قد بدأ تدريجياً بانتزاع جميع أحباس الحرمين الشريفين بالتدريج⁽¹²⁸⁾.

4 – إلغاء المجلس الشريف للإفتاء:

وفي عهدة كلوزيل الثانية أتبع مرسومه الأول بمرسوم آخر نشر يوم 1838/10/31م يؤكد فيه ما جاء في سابقه، بالإضافة إلى إطلاق يد السلطة الحاكمة التصرف في الأوقاف الإسلامية تفعل بها ما تشاء⁽¹²⁹⁾، ثم جاء المرسوم الملكي المؤرخ يوم 1839/08/21م بإثبات جميع القرارات الصادرة عن إدارة قيادة الحملة الفرنسية في الجزائر بخصوص الأوقاف وتصحيحها ليعقبه قرار وزير الحربية الفرنسي يوم 1843/03/23م القاضي بتحويل مصاريف ومداخيل المؤسسات الدينية

(125) راجع نص المعاهدة في المطلب الأول من المبحث الأول من الفصل الأول، ص 4..

(126) انظر: حمدان خوجة، المرأة، ص 269.. 293. والجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 423 و424، بتصرف.

(127) انظر: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية، ص 23.

(128) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 441.

(129) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 441 و442.

إلى مصالح الدولة الفرنسية. (130) ثم توالى بعد ذلك اللوائح والمنشورات التي تتناول تحويل واغتصاب أموال الأوقاف الإسلامية، إلى أن حلت سنة 1847م التي أبعدها فيها الشيخان (مصطفى بن الكبابي المالكي) و(محمد العنابي الحنفي) (131)، ونفيا إلى المشرق العربي وادعت بعدها الحكومة الاستعمارية ضياع عهود وصكوك الأوقاف الإسلامية الجزائرية، وبذلك ضاعت الأوقاف الإسلامية بضياع عهدها ووثائقها وصكوكها الإثباتية (132).

5 - إلغاء التحاكم للشريعة الإسلامية والتحاكم للقانون الفرنسي:

ثم تطاولت الإدارة الاستعمارية متمادية في محاولة منها لضم سائر الجزائريين وإحاقهم بفرنسا الحاقا تاما بموجب دستورها الجديد الصادر يوم 1848/11/04م وليصبح المسلم الجزائري بمواده القانونية فرنسيا أهليا تابعا (133)، متعدية على حقوق المسلمين الجزائريين لا في حق الهوية والانتماء فحسب، وفي حق التحاكم إلى المحاكم الشرعية الإسلامية، بل في وجوب الالتجاء إلى التحاكم للمحاكم الفرنسية الاستعمارية التي تحكم بالقوانين الوضعية.

فبدأت بإصدار القانون الصادر يوم 1859/12/21م الذي يفصل إقليم بلاد القبائل الكبرى عن سائر البلاد الجزائرية في مسألة التحاكم إلى القوانين الوضعية وإلى العرف المحلي والعادات والتقاليد، ملغية بذلك - بصفة تدريجية - سلطة القضاء الشرعي وسلطة القضاة المسلمين الشاملة في بلاد القبائل (134).

ولتلغي بالقانون الصادر يوم 1874/12/29م سلطة بعض القضاة المسلمين الذين عينتهم للقضاء الإسلامي الشرعي في بلاد القبائل، وفي نفس العام تمادت الإدارة الاستعمارية فألغت بقرار عام 1859م المجلس الشريف للافتاء، ولبقى القضاء الشرعي مقتصرًا على الأحوال الشخصية الإسلامية، وتحويل ما عداه إلى المحاكم الفرنسية العليا (135).

وقد نسفت الجمهورية الفرنسية الثالثة القضاء الشرعي الإسلامي نسفا تاما وذلك بإصدارها قانون 1873/07/26م الذي ينزع من القضاة المسلمين حق النظر في مسائل الملكية والاستحقاق، وكذلك بالقانون الصادر يوم 1874/12/28م الذي تم بموجبه استبدال حكم الشرع الإسلامي بنظام الجماعة الأهلية في بلاد القبائل خاصة وفي الجزائر عامة (136).

ثم ضيقت الأمر على المسلمين شيئا فشيئا إلى حين استصدار قانون 1889/04/17م الذي يجعل من قاضي الصلح الفرنسي الحاكم في القضايا العامة بين المسلمين الجزائريين، بعد أن كان موكولا للقضاة المسلمين الشرعيين الذي دعمه

(130) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 442.

(131) ستأتي ترجمة للشيخ مصطفى بن الكبابي لاحقا. كما ألف سعد الله كتابا عن المفتي ابن العنابي.

(132) انظر: المرجع السابق نفسه، ج 3، ص 442.

(133) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 321.

(134) انظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 513.

(135) انظر: الجيلالي، ج 3، ص 513. والمدني، كتاب الجزائر، ص 314.

(136) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 314، بتصرف.

قرار 1889/06/07 الذي يجرّد تدريجيا ومرحليا القضاة المسلمين من كل الصلاحيات المخولة لهم شرعيا واجتماعيا إلا من صلاحية الإشراف على الأحوال الشخصية الإسلامية للمسلمين، الذي سينقحه ويضبطه قرار 1892/05/25م المنظم للقضاء الشرعي الإسلامي، ويجرده من كل سلطة شرعية، ولينحصر القضاء الإسلامي به في أضيق الحدود، وليصبح به القاضي المسلم أيضا ينظر إلا في الأنكحة والمواريث وتنفيذ أحكام الصلح فقط (137).

وبعد أن دجن الإسلام ومؤسساته وحولت عن مهامها الشرعية أصدرت الإدارة الاستعمارية قانون 1905/12/09م الخاص بفصل الدين عن الدولة، الذي نفذ بقرار 1907/09/27م في الجزائر، والذي يجعل من المساجد والمعاهد الدينية وأوقافها ملكا للدولة الفرنسية الاستعمارية، وبه أصبحت الحكومة - ظاهريا - لا تتدخل مباشرة في أمور الدين وأوكلت أمره للجمعيات الدينية التي يمكن للمسلمين أن يؤلفوها فيما بينهم، وتعترف الدولة بهم للإشراف وتسيير شؤون تلك الأوقاف والمساجد والمعاهد. (138)

ثم تمادت الإدارة الاستعمارية في تدجين المؤسسات الدينية لتقلل من سلطتها على الشعب لكونها القائمة على تزويد القطاع الديني بالإطارات الدينية المتفهمة في العلوم الشرعية الإسلامية ولتسحب منها هذه المزية الأخرى، منشئة بقرارها الصادر يوم 1850/09/30م المدارس الإسلامية الفرنسية المختلفة الثلاث (الفرنكوميزيلمون) في تلمسان وقسنطينة والمدية، لتتولى بنفسها تكوين الإطارات الدينية الإسلامية المدججة - حسب النمط الذي تريده الإدارة الاستعمارية له، لينكفئ على العبادات وليمتلىء بالخرافات والأباطيل.. - بهدف حرمان هذه المؤسسات الدينية العتيقة من لعب دورها المنوط بها شرعيا وحضاريا، وقيادة جموع المسلمين لاتباع دينهم، والاهتداء بكتاب ربهم، والعمل بسنة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام. ولتمنح لهذه المدارس الثلاث مكانة وحق وقدسيتها وشرف المساجد والجوامع والمعاهد الإسلامية العليا.

6 - منع الأئمة غير الرسميين من الوعظ والتدريس:

واستمرت حالات الهيمنة والتدخل الاستعماري في شؤون الإسلام والمسلمين حتى بعد صدور قانون 1905م القاضي بفصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية إلى أن جاء قرار (شوطان - CHATAN) الكاتب العام لولاية الجزائر المؤرخ يوم 1933/02/16 الذي يمنع الوعظ والإرشاد في المساجد والجوامع لغير العلماء المعيّنين من قبل الإدارة الفرنسية، ويجعله حكرا على الأئمة الرسميين فقط (139).

وظلت قبضة الإدارة الاستعمارية متحكمة في شؤون الإسلام والمسلمين باتباعها لسياسة قمعية متمثلة في الاجراءات الزجرية التالية:

1 - الاستيلاء على المساجد عنوة وحرمانها من منابع قوتها المتمثلة في الأوقاف الإسلامية.

(137) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 349، بتصرف.

(138) انظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية 1847 - 1939م، ص 132.

(139) انظر: الجليلي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 443.

2 - إغلاق المدارس والمعاهد الدينية الإسلامية التي كانت قائمة في الجزائر قبيل الاحتلال دون تعويض المسلمين الجزائريين بمثيلاتها.

3 - إضطهاد العلماء وتشريدهم والتضييق عليهم بسبب مواقفهم وآرائهم التنويرية في المجتمع.

4 - إفقار الجزائر والجزائريين بمنابعم الثقافة الأصيلة العربية الإسلامية.

5 - محاربة اللغة العربية والتعليم العربي الإسلامي الحر والتضييق على تدريسها، واعتبار العربية لغة أجنبية بموجب قانون الاستدلال الفرنسي الصادر يوم 1938/03/08م.

6 - فتح أبواب الجزائر على مصراعها للمبشرين المسيحيين من كافة المذاهب المسيحية بقصد تنصير الجزائريين وتمسيح الجزائر.

7 - التركيز على الفتاة الجزائرية المسلمة لمسختها وتشويهها، وتشكيل عقلها ووجدانها المتأغرب تمهيدا لأغربة الأسرة الجزائرية وإبعادها عن منابعها العربية الإسلامية الأصيلة.

8 - فصل بلاد القبائل الكبرى واعتبارها مقاطعة مفصولة عن الجزائر، وذلك بتشجيع كل عوامل الفرقة المتمثلة في إبعاد الإسلام والدعاة والوعاظ والأئمة المسلمين منها، وإحياء اللسان الأمازيغي فيها، واعتباره لهجة وطنية إلى جانب اللغة العربية، لبت عوامل الفرقة بين المسلمين الجزائريين.

9 - السيطرة على كل المرافق الحياتية: الاجتماعية والتربوية والفنية والأدبية والإعلامية والعلمية.. وذلك لطبع الجزائري بالطابع الفرنسي.

ولم تحل سنة 1927م حتى بقي في مدينة الجزائر أربعة مساجد جامعة وأربعة مصليات وخمسة أضرحة⁽¹⁴⁰⁾، وانتهى أمر المؤسسات الدينية الإسلامية وأوقافها ورجالها.

وفي ظل هذه الأوضاع الدينية المتردية قام الشعب الجزائري بالحفاظ على الرmq الأخير من الإسلام، وبعثه حيا بإذن الله بعدما كاد يقبر في الجزائر على يد فرنسا الصليبية.

تاسعا- واقع التبشير المسيحي في الجزائر:

غدت الجزائر - ابتداء من يوم سقوطها - مسرحا رحبا للجنود والقادة الذين حضروا بمعية قائدهم الكونت دوبورمون إلى القصبة بغية إقامة قداس ديني بمناسبة انتصار المسيحية العظيم على الإسلام، وقد خطب الكونت دوبورمون - بمعية القساوسة والرهبان الستة عشر الذين رافقوا الحملة الغازية وباركوها - فيه قائلا: ((.. لقد أعدتم معنا فتح باب المسيحية لأفريقيا، ونتمنى في القريب أن نعيد الحضارة التي انطفأت فيها منذ زمن طويل..))⁽¹⁴¹⁾.

(140) انظر: الجليلي، تاريخ الجزائر، ج 3، ص 443.

(141) خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 - 1871م، دار دحلب، الجزائر، الطبعة الأولى، 1992م، ص 20، نقلا عن:

GABRIEL ESQER؛ LA PRISE D ALGER؛ PARIS؛ 1921؛ pp 320 .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه دو برمون يقيم قداسه في قسبة الجزائر كان الملك (شارل العاشر) يشهد قداسا معظما في كنيسة <نوتردام دي باري > يحمده الرب فيه على انتصاره على الأعداء، كما أقيمت يوم 1830/07/21م صلاة معظمة أخرى في الكنيسة الملكية بالقصر الملكي للقديس لويس التاسع بشأن هذا الانتصار المسيحي العظيم (142).

ولم يكد يمر عام واحد على احتلال مدينة الجزائر حتى قررت قيادة الحملة الاستعمارية تمسيح جامع كتشاوة وتحويله إلى كنيسة، وفي يوم 1831/12/17م حاصرت قوات الجنرال < دو روفيقو > جامع كتشاوة الذي تحصن فيه آلاف الأشخاص للدفاع عنه، ولكن الجيش تلقى الأوامر بكسر الأبواب وإطلاق النار على المصلين، فتدفق السكان المعتصمون بالمسجد خارجه ما بين قتيل وجريح ومغمى عليه.. ثم أغلق المسجد إلى غاية إتمام الأشغال فيه لتحويله إلى كاتدرائية كبرى، وقد اختار القس < كولان > يوم 1832/12/24م بمناسبة عيد ميلاد المسيح لتمسيحه وتحويله إلى كاتدرائية تحمل لقب < الملك لوي فيليب > الذي بارك هذا العمل المسيحي العظيم، وبعث هو وزوجته والبابا بالهدايا الثمينة للكاتدرائية الجديدة. وقد عبر الجنرال دوروفيقو بهذه المناسبة المسيحية العظيمة إلى وزير الحربية الفرنسي قائلا: ((..إني فخور بهذه النتائج، فلأول مرة تثبت الكنيسة في بلاد البربر..)) (143).

وما بين سنتي 1830 - 1832م تم تحويل حوالي اثنين وثلاثين مسجدا وجامعا إلى خدمات المصالح الإدارية والمرفقية الاستعمارية، وتحطيم خمسة مساجد في الجزائر العاصمة وحدها (144)، واستمرت الإجراءات الاستتصالية الفرنسية ضد الدين الإسلامي، مركزة على مؤسساته الدينية إلى أن اتفق البابا <غريغوار> والملك لوي فيليب على تأسيس الأسقفية المسيحية الأولى بأرض أفريقيا في الجزائر يوم 1838/08/18م، وتعيين السيد < أنطوان ديبيش > أول أسقف لها في أفريقيا كلها (145).

وبعد فتح قسنطينة قام قادة الحملة الاستعمارية بتحويل جامعها الكبير إلى كنيسة، وقد ألقى فيه سكرتير الجنرال < بيجو > خطابا جاء فيها على الخصوص: ((.. إن أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك - بأي حال من الأحوال - أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد. أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين)) (146).

1 - عوامل تطور حركة التبشير المسيحي:

(142) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 20..

(143) انظر: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية، ص 33 و34، بتصرف.

(144) انظر: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية، ص 51. وعبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق.. ص 237.

(145) انظر: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية، ص 39، بتصرف.

(146) كولبيت فرانسيس جاكسون، الجزائر الثائرة، ترجمة: علوي الشريف وآخرون، دار الهلال، القاهرة، الطبعة الأولى، 1957م، ص 41، نقلا عن: تركي رابح، ابن باديس، ص 44 و45.

وقد تطورت ونمت حركة التبشير المسيحي في الجزائر بفضل اتخاذ الإدارة الاستعمارية العديد من الاجراءات والتدابير التبشيرية، التي من أهمها:

1 - حرص رجال الدين المسيحي الشديد على التبشير بدينهم والتعريف به واكتساب المدعوين إليه.

2 - بذل كل الجهودات اللازمة لإيصال الحركة التبشيرية إلى أقصى حد ممكن.

3 - التركيز على الفئات المعدمة والمسحوقة اجتماعيا واقتصاديا، واستغلال ظروفها السيئة.

4 - إتقان المبشرين اللغة العربية واللهجة العامية الجزائرية والأمازيغية معا.

5 - الفهم العميق لثوابت ومتغيرات الفرد الجزائري، ومواطن القوة والضعف في عقله ونفسيته وروحه وثقافته وعاداته وتقاليده الاجتماعية..

6 - خلق الفرص اللازمة لاستمرار فاعلية عملية التبشير، والسعي في توفير الجو المناسب لها.

7 - التركيز على الأطفال ولاسيما اليتامى منهم، وعلى النساء ولاسيما الأرمال منهن.

8 - استغلال المجال الصحي: (تمريض. تطبيب. توزيع أدوية)، والمجال التربوي: (تربية. تعليم)، والاجتماعي: (توزيع الصدقات والإعانات. والمساعدات. إنشاء الجمعيات)، والبيئي: (الحفاظ على الطبيعة الرفق بالحيوان..)، والإنساني: (إظهار التعاطف مع الأهالي المضطهدين..) وخاصة لدى الفئات المراد تبشيرها بغرض ضمها إلى الدين المسيحي.

9 - استغلال جهل الأهالي بدينهم وفهمهم السطحي له ولاسيما الفئات المسحوقة الأمية، التي شاع بينها الإسلام الخرافي الطرقي الذي يقوم على فهومات باطلة ومخالفة لمعتقدات الإسلام.

10 - مساعدة إدارة الاحتلال لحركة التبشير ومدتها بكافة المساعدات والوسائل المادية والمعنوية (147).

وبتشجيع من الأميرال <دوغيدول> تأسست المراكز التبشيرية الأولى في بلاد القبائل عام 1873م عقب هزيمة ثورة الرحمانية، وهذه المراكز هي:

- 1 - مركز تغمونت عزوز في بني عيسى سنة 1873م، ويشرف عليه أربعة مبشرين.
- 2 - مركز توريت عبد الله في آيت واضو سنة 1873م، وبه ثلاثة مبشرين.
- 3 - مركز خراطة في بني اسماعيل سنة 1874م، وبه أربعة مبشرين.
- 4 - مركز ورزان في بني منقلات سنة 1876م، وبه خمسة مبشرين.
- 5 - مركز إيغيل علي في بني عباس سنة 1879م، وبه خمسة مبشرين (148).

وقد كثف القساوسة في بلاد القبائل الكبرى نشاطهم بهدف معرفة نوعية رجالهم، واكتشاف مدى تجاوبهم واستعدادهم لاعتناق المسيحية، وقد بدأ القس (كروزات) أحد أعضاء الجمعية اليسوعية وأكثرهم نشاطا في التقرب من الفلاحين من دون حرج

(147) انظر: محمد البشير الإبراهيمي، فلسفة الإصلاح الديني، سجل مؤتمر جمعية العلماء، المطبعة الإسلامية الجزائرية، قسنطينة، الطبعة الأولى، 1935م، ص 20.. ومابعدا بتصرف.

وبقطاش، الحركة التبشيرية، ص 169 و170، بتصرف.

(148) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 156.

وكان يدعوهم لمنزله للتعرف وللصداقة، ولدى مغادرتهم منزله يزودهم ببعض المواد الغذائية، وأحيانا يزودهم بالنقود لاستدراجهم وتعويدهم على القيام بزيارته ثانية وثالثة.. مع أنه كان لا يحدثهم في أمور الدين أبدا (149).

وقد ظهر التواطؤ بين رجال الاستعمار السياسي والعسكري من جهة ورجال الحركة التنصيرية التبشيرية المسيحية من جهة أخرى، فقد توصلت الباحثة (خديجة بقطاش) إلى توضيح هذه التواطؤ في الخلاصات والنتائج التالية:

1 - إن للتبشير علاقة بالاستعمار، فأغلب المبشرين يرون أن نجاح التبشير متوقف على مدى نجاح مد حركة الاستعمار، وهدف الاحتلال في نظرهم هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمرين.

2 - دور رجال الدين المسيحي في التحضير لإنجاح الحملة الفرنسية على الجزائر.
3 - دهاء ومكر المبشرين على بث الفرقة والنعرات الطائفية بين السكان الجزائريين.
4 - فتح النشاط التبشيري في الجزائر الباب على مصراعيه للتبشير في القارة الأفريقية كلها (150).

2 - دور الكاردينال لافيغري في حركة التبشير المسيحي:

وقد لمعت أسماء الكثير من القساوسة في حقل التبشير المسيحي وعلى رأسها الكاردينال الشهير <لافيجيري> الذي عمل جاهدا في الحركة التبشيرية، وكان له الفضل في تأسيس فرقة الآباء البيض في شهر فيفري 1869م التي كان لها الدور الأكبر في تمسيح من تمسح من الأهالي (151).

وهو الذي وقف يوم الإعلان الرسمي لتأسيس فرقة الآباء البيض خطيبا، حيث قال: ((.. يجب أن نجعل من الأرض الجزائرية مهذا للأمة الفرنسية المسيحية وينبغي أن ننشر حولنا الأضواء الحقيقية للحضارة المستمدة من الإنجيل، وأن نحملها إلى الصحراء وإلى العالم الإفريقي الذي يعيش حالة بربرية، ونعمل على ربط وسط أفريقيا بشمالها..)) (152).

وما هو إلا قرن من الاحتلال حتى كان عدد الكنائس المسيحية في الجزائر في بداية الأربعينيات حوالي 327 كنيسة للمسيحيين، و45 معبدا لليهود، و166 مسجدا فقط للمسلمين الجزائريين، الذين كان تعدادهم حوالي ستة ملايين نسمة (153).

وهكذا تغيب شمس الإسلام عن الجزائر حتى قيض الله لدينه ولدعوته رجال يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين كان منهم ابن باديس

(149) انظر: الطاهر أوصديق، ثورة 1871م، ترجمة: جناح مسعود، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، 1989م، ص 14.

(150) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 163، بتصرف.

(151) انظر: بقطاش، ص 128، نقلا عن:

PAUL LESOURD. LES PERES BLANCS DU CARDINAL LAVIGERIE؛ PARIS 1925. PP 64* .

(152) انظر: المرجع السابق نفسه، ص 128. والجيلالي، تاريخ الجزائر، ج 4، ص 288.

(153) انظر: تركي رابح، ابن باديس، ص 47، بتصرف. ولمزيد من الاطلاع على تطور عدد الكنائس المسيحية في الجزائر انظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق، ص 233..

والابراهيمى والعقبى والعربى التبسى، وغيرهم الكثيرين ممن أخلصوا العمل والنية لله تعالى، وهم الذين أحيوا مجد الإسلام وأعادوا له شمس الغائبة من سماء الجزائر.
والنتيجة:

يستخلص من هذا البحث أن الاستعمار الفرنسى فى الجزائر قد أتى على كل المقومات الأساسية للشعب الجزائرى العربى المسلم فى جميع ميادين حياته، وقد بدا ذلك واضحا فى الجوانب التالية:

1 - الجانب السياسى:

أزال الاستكبار الفرنسى الكيان السياسى الحر للشعب الجزائرى، ونزع منه كل مظاهر السيادة فى الحكم، وفى اختيار حاكمه وممثليه ومؤسساته السياسيه، وأفرغ مفاهيم الانتمائية والكيانية الوطنيه من كل محتوياتها ومضامينها الجزائرية الأصيلة ذات الامتدادات التاريخيه الحضارية العربيه الإسلاميه على مستوى الفرد النظرى التصورى، وعلى مستوى الكيان السياسى الواقعى، وأدخل الجزائريين فى مرحلة انهزاميه - صنعها عبر وسائله ومؤسساته الاستعماريه التسلطيه - اتسمت بالقمع والإرهاب والزجر.. - قوانين الانديجينا - ليمحو الكيان السياسى الجزائرى من الوجود.

2 - الجانب الاقتصادى والاجتماعى:

نزع من الجزائريين أملاكهم وأراضيهم وأموالهم بالبطش والإرهاب والظلم ومنحها ظلما وقهرا لغلاة المعمرين المستغلين، وامتهن الجزائريين بذل فى أعمال الاستسخار الاستكبارى لخدمة اقتصاده، وغير مسارها الاقتصادى، وفرض عليها التبعيه، فصار اقتصادها تابعا للمركزيه الاستغلاليه الفرنسيه.

3 - الجانب الاجتماعى:

امتهن كرامة الفرد الجزائرى، وجعله مواطنا حقيرا من الدرجه الثانيه، وفرض عليه ظروف معيشيه سيئه جدا، تفنقر إلى أبسط المقومات الأساسية للعيش الكريم، فصار عرضه للفقر والحرمان والمرض والانحرافات والموت..

4 - الجانب الدينى والثقافى:

قضى على كل المقومات الأساسية للدين الإسلامى ومؤسساته الروحيه والعلميه والاقتصاديه والقضائيه، وطارد رجاله والقائمين عليه مطاردة إبديه، كما قضى على اللغة العربيه وأبعدها على أن تكون أداة الترابط الاجتماعى والحضارى الجزائرى العربى الإسلامى الأفقى والعمودى.
كما أفرغ الشخصيه الجزائرية من قيمها ومثلها العلا العربيه الإسلاميه، وذلك بخلقه لفئه هجينة وممسوخة من الجزائريين، كان لهم التأثير الفعال على مستقبل الجزائر أثناء الثورة وبعد الاستقلال.

قائمة المصادر والمراجع

- 1 - حمدان خوجه . المرآة . تحقيق محمد العربى الزبيرى . الشركة الوطنيه للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى. 1974م .
- 2 - أحمد توفيق المدني . حياة كفاح . الشركة الوطنيه للنشر والتوزيع . الجزائر . 1978م .
- 3 - أحمد حماني . الصراع بين السنة والبدعة . دار البعث . قسنطينة . الطبعة الأولى . 1984م .
- 4 - عباس فرحات . ليل الاستعمار . مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب . دون طبعة وتاريخ .

- 5 - محمد خير الدين . المذكرات . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الثانية . 1988م .
- 6 - مالك بن نبي . مذكرات شاهد القرن . دار الفكر . دمشق . الطبعة الأولى . 1979م .
- 7 - عبد الرحمن العقون . الكفاح القومي والسياسي 1920-1936م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1984م .
- 8 - أحمد توفيق المدني . كتاب الجزائر . دار الكتاب . البليدة . الجزائر . الطبعة الثانية . 1963م .
- 9 - عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . دون طبعة وتاريخ .
- 10- أبو القاسم سعد الله . تجارب في الأدب والرحلة . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1983م 1403هـ .
- 11- أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الثانية . 1985
- 12- أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . دار الغرب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى 1990م . 1410هـ .
- 13- أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية 1830-1871م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1992م . القسم الأول .
- 14- أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية 1900-1930م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الثانية . 1978م .
- 15- أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية 1930-1945م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الثالثة . 1983م .
- 16- أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية 1945-1954م . معهد دراسات الوحدة العربية . القاهرة . الطبعة الأولى . 1960م .
- 17- الجيلالي صاري ، محفوظ قداش . المقاومة السياسية 1900-1954م . ترجمة : عبد القادر بن حراث . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1987م .
- 18- صلاح العقاد . الجزائر المعاصرة . معهد الدراسات العربية . القاهرة . الطبعة الأولى . 1963-1964 .
- 19- محمد حسنين . الاستعمار الفرنسي . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الرابعة . 1986م .
- 20- أحمد الخطيب . جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى 1985م .
- 21- أحمد الخطيب . حزب الشعب . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1986م .
- 22- أحمد توفيق المدني . هذه هي الجزائر . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . الطبعة الأولى . 1965م .
- 23- أحمد توفيق المدني . مذكرات الشريف أحمد الزهار . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1974م .
- 24- احسنوبمالي . استراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1956م . منشورات المتحف الوطني للمجاهد . الجزائر . دون طبعة . دون تاريخ .
- 25- جمال قنان . قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر . منشورات متحف الجهاد . الجزائر . دون طبعة . 1994م .
- 26- الزبير سيف الإسلام . ثورة المقراني . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1985م .
- 27- الزبير سيف الإسلام . صفحات من الصراع الجزائري الفرنسي . المؤسسة الوطنية للطباعة . الجزائر . الطبعة الأولى . 1988م .

- 28- شارل أندريه جولييان . أفريقيقا الشمالية تسير . ترجمة :المنجي سليم وآخرون. مراجعة : فريد السوداني . الدار التونسية للنشر . تونس . الطبعة الثالثة . 1396هـ . 1976م .
- 29- شارل أندريه جولييان . المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي . تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة . نشر الشركة التونسية للتوزيع . تونس . دون طبعة . دون تاريخ .
- 30- شارل روبير آجيرون . تاريخ الجزائر المعاصرة . ترجمة عيسى عصفور. ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . الطبعة الثانية . 1982م .
- 31- أندريه برينان . أندريه نوشي . إيف لاكوست . الجزائر بين الماضي والحاضر . ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . الطبعة الأولى . 1984م .
- 32- عبد الحميد زوزو . الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939م ، المؤسسة الوطنية للكتاب . الطبعة الأولى . 1985م .
- 33- عبد الحميد زوزو . نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1900م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1984م .
- 34- محمد الطيب العلوي . مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954م . منشورات المتحف الوطني للمجاهد . الجزائر . دون طبعة وتاريخ .
- 35- محمد حربي . الجزائر 1954-1962 . جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع . ترجمة : كميل قيصر داغر . دون دار . دون طبعة . دون تاريخ .
- 36- محمد علي دبوذ . تاريخ الجزائر وثورتها المباركة . المطبعة التعاونية . الجزائر . الطبعة الأولى . 1385هـ . 1965م .
- 37- محمد علي دبوذ . أعلام الإصلاح في الجزائر 1921-1975م . مطبعة البعث . قسنطينة . الجزائر . الطبعة الأولى . 1394هـ . 1974م .
- 38- ناصر الدين سعيدوني . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1988م .
- 39- محمد العربي الزبيري . الثورة الجزائرية في عامها الأول . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1985م .
- 40- محمد العربي الزبيري . المتفقون الجزائريون والثورة الجزائرية . منشورات المتحف الوطني للمجاهد . الجزائر . دون طبعة وتاريخ .
- 41- محمد العربي الزبيري ، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1972م .
- 42- البشير بن الحاج عثمان الشريف . أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881-1924م . دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع . تونس . الطبعة الأولى . دون تاريخ .
- 43- رمضانلاوند . الحرب العالمية الثانية . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الرابعة . 1973م .
- 44- يحي بوعزيز . الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه 1912-1948م . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . دون طبعة . دون تاريخ .
- 45- يحي بوعزيز . الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال وثائق جزائرية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . الطبعة الأولى . 1986م .
- 46- الطاهر أوصديق . ثورة 1871م . ترجمة جناح مسعود . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1989م .
- 47- محمدقناش . محفوظ قداش . حزب الشعب الجزائري . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . الطبعة الأولى . 1988م .
- 48- الجيلالي صاري . محفوظ قداش . المقاومة السياسية 1900-1945م . ترجمة عبد القادر بن حراث . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1987م .

- 49- مولاييالحاميسي . الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الثانية . 1981م .
- 50- هاينريش فون مالتسمان . ثلاث سنوات في شمال أفريقيا . ترجمة : أبو العيد دودو . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1981م .
- 51- وليمشالر . مذكرات قنصل أمريكا بالجزائر في العهد العثماني . ترجمة أبو العيد دودو . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1985م .
- 52- مبارك الملي . تاريخ الجزائر بين القديم والحديث . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . دون طبعة . دون تاريخ .
- 53- محمد الطاهر فضلاء . التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح . دار البعث . قسنطينة . الطبعة الأولى . 1982م .
- 54- نبيل أحمد البلاسي . الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . دون طبعة . 1990م .
- 55- محمد الأخضر عبد القادر السائحي . محمد الأمين العمودي . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1988م .
- 56- محمد الملي . ابن باديس وعروبة الجزائر . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الثانية . 1983م .
- 57- أحمد بن نعمان . التعريب بين المبدأ والتطبيق . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1401هـ . 1981م .
- 58- عثمان سعدي . عروبة الجزائر عبر التاريخ . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى 1981م .
- 59- مصطفى الأشرف . الجزائر الأمة والمجتمع . ترجمة : حنفي بن عيسى . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1983م .
- 60- محمد طهاري . مفهوم الإصلاح بين الأفغاني وعبدة . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الثانية 1992م .
- 61- خديجة بقطاش . الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871م . دار دحلب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1992م .
- 62- محمد بن حمو . دور التبشير والاستشراق في الثقافة العربية والإسلامية في الجزائر . رسالة ماجستير غير منشورة . جامعة عين شمس . كلية الآداب . قسم اللغة العربية وآدابها . القاهرة . 1409هـ 1989م . إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة .
- 63- أنور الجندي . الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة . الطبعة الأولى . 1385هـ 1965م .
- 64- محمد الصالح الصديق . وقفات ونبضات . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1972م .
- 65- محمد الصالح الصديق . الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه . دار البعث . قسنطينة . الجزائر . الطبعة الأولى . 1983م .
- 66- محمد الطاهر فضلاء . قال الشيخ الرئيس . دار البعث . قسنطينة . الجزائر . الطبعة الأولى . 1968م .
- 67- إسماعيل العربي . الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1983م .
- 68- محمد الصالح الجابري . النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م . الدار العربية للكتاب . تونس . الطبعة الأولى . 1986م .
- 69- تركي رايح . ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الثالثة . 1981م .

- 70- تركي رابح . التعليم القومي والشخصية الجزائرية . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الثانية . 1981م .
- 71- الطاهر الحداد . التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة . الدار التونسية للنشر . الطبعة الأولى . 1981م .
- 72- مصطفى عشوي . المدرسة الجزائرية الى أين ؟ . دار الأمة . الجزائر . الطبعة الأولى . 1991م .
- 73- التومي، محمد (ت 2000م)، المجتمع الإنساني في القرآن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ودار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 1407هـ-1986م .